دكتور أنور لوقا

جوانب خفية من الثورة العرابية

سلطان أفندى

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

إهــداء

إلى روح أخى شكرى
أول من قرأ هذه الصفحات
بعين «معاون إدارة» الروضة
تذكارًا لعهدنا فى ملوى

د. أنور لوقا

مقدمة

من الواقع إلى التاريخ وبالعكس

موضوع هذا الكتاب فرض نفسه فرضا على باحث مضى يستكشف تاريخ مصر الحديث فى دور الوثائق ، بعد أن تلقاه فى الأربعينات كالبديهيات ضمن مناهج الدراسة الثانوية والجامعية بالقاهرة . وإذا بالخطوط المستقيمة والمعالم البارزة والمعانى المبسطة الواضحة التى عهدها فى تلك المناهج « المقررة » على شباب المتثقفين تنحسر أمامه شيئًا فشيئًا عن ملابسات وأحداث مختلطة ، وعلاقات بين الأمور مغايرة ! كان بعض ما انتهى إلى الوقوف عليه مضمرا أو خافيا ، وبعضه محذوفا أو مبتورا فى الروايات والتأويلات الرسمية ، وها هو ذا يعيد النظر إلى وجوه مألوفة له من الماضى القريب ، فطن أخيرا — مع تطور مجتمعه ووعيه وتجربته العلمية — إلى أنها كانت تبدو له من خلال أقنعة .

وتبرز من هذه الرؤيا الحاشدة بالألغاز والمتناقضات ملامح مجهولة من « الثورة العرابية » التى تحتفل مصر اليوم بذكراها المئوية .

« العرابية » ... ألا يتجلى قبل كل شىء فى هذا النعت الذى درج على ترديده كل المؤرخين طوال القرن المنصرم غرض كامن ؟ فهو تعبير دقيق ،

مجزوء ، ينطوى على الحد من شأن حركة وطنية شاملة . إن نسبة تلك الحركة إلى فرد واحد تهوين من خطرها ، بمحو دلالتها الجماعية . وترويض الأذهان على مرادفة اسم عرابى للثورة ، ومرادفة الثورة لاسم عرابى ، يؤدى إلى حصر تلك الظاهرة فى شخص بذاته وما أيسر تجريحه بعد ذلك بل تسفيهه بالافتراء عليه ، مهما تكن خصاله ! وتلك حكاية « العاصى » و « العصيان » – ذلك المفهوم الذى تواطأ الخديو والسلطان والبريطانيون على أن يصادروا به سيادة شعب هب يطالب بمجلسه النيابى ، أى نهض ليحكم نفسه بنفسه .

واقعية تلك الثورة فى أبعادها الجماعية :

وواقعية التجمع فى تفاعل العناصر الشتيتة التى انصبت فى بوتقة الكل .

ولا نود هنا فتح باب الجدل حول الموضوعية والذاتية فى كتابة التاريخ ، فهو حديث طويل متشعب ، لا تسعه صفحات مثل هذا الكتاب . والمؤكد أن الموضوعية هدف بعيد المنال لمن أراد – صادقا – أن يرصد التاريخ أو يستقصى الواقع . فمنطق التاريخ كمنطق الواقع ، متعدد المآتى والمخارج والمزالق . تنحبك عُقَدُه من خيوط متفاوتة الأطوال والغلظ والألوان والمصادر . قد تلاحقه ضوابط العقل فيندّ عنها ما يجرى فى أغوار النفس – فردية وجماعية . ثم لا ينقطع فى أثناء صياغة المعلومات فى قوالب اللغة تَشكُّل المعانى بين يدى المؤرخ بأشكال التراكيب المتداولة ، والألفاظ المتداعية ، التى يولد سياقها اللغوى معنى إجماليا – يطغى على المعنى الذى تؤديه فرديةُ كل جزء – أو يستدرجها معنى مسبق فينظمها فى عقده نَظْماً متعمدا . لذا أصبح المؤرخون

اليوم يفتشون عن التاريخ فيما وراء «كلام التاريخ» ، ويحاولون تقييم الخبر بالقياس إلى أساليب إذاعة الخبر فى الناس .

من تلك المنافذ المستترة – التى يعرفها علماء اللغة والمنطق والتحليل النفسى والمجتمع – تسللت أدوات الإعلام فى مختلف العهود لتوجيه « التاريخ » ، أى لتقديم حديث عن الماضى طبقا لخطة موضوعة ذات هدف خاص . ومادام التاريخ أحاديث لا تبلغ الآذان والأذهان إلا على متن سرد متصل ، وجمل نحوية مفيدة مترابطة ، فإن مجال التعسف الخارجى مفتوح عند تدوينه للمتصرف الخبير بقواعد فن السرد ، وصناعة البلاغة ، وجرعات الإيجاز والإطناب ، وحيل التقديم والتأخير ، والموازنة والتبويب والمدح بما يشبه الذم ، أو الذم بما يشبه المدح . .

هكذا تحتل مكان الصدارة فى كل عهد من عهود كتابة تاريخ ما ، صور لأشخاص بعينهم ، أوقفهم « الزمن » مواقف حددها لهم ، دون سواها ، حول محور معلوم . صور مكبرة تحجب عن الأبصار ماعداها ، وتستقطب من جوارها التفاصيل ، وتؤدى إلى تبلور الأفكار والعبر فى الأذهان بحسب غرض المؤلف أو مكانه من بيئته وعصره ، وعوامل الضغط المادية والسياسية المسيطرة على مجالات نشاطه .

ومهما يكن من مذاهب النقاد اليوم فى معالجة مشكلة تأريخ التاريخ ، فإن الباحث فيما بقى ، أو فيما أتيح له الاطلاع عليه من آثار الماضى ، لا يصادف الوقائع « الخام » التى يتألف منها ذلك الماضى إلا مصادفة ذرات من ظاهر الحياة متفرقة . لذا كانت الصفحات التالية رجوعا إلى الواقع أولا ، بالرجوع إلى

التعدد والتنوع والثراء الذى جاشب به أرض مصر فى حقبة فريدة . إنها استعراض لمشاهد من الصعيد والقاهرة ، وتعرّف بوجوه مغمورة . وقد استحضرتها الذاكرة لإحياء عهد صفته الغالبة هى « الحركة » . ليست هذه الصفحات إذن محاولة لإعادة كتابة التاريخ ، بقدر ما هى محاولة لإعادة قراءته – بالمعنى الوارد فى معاجم اللغة العربية :

« قرأ الشىء : جمعه وضم بعضه إلى بعض » .

وقد جمع « القارىء » هذه المادة – وضم بعضها إلى بعض – خلال جولات مستأنية فى المطبوع والمخطوط من أوراق ذلك العصر ، فى أثناء الإعداد لأبحاث علمية استغرقت عدة سنوات بين القاهرة وباريس ولندن وبرن وجنيف . استخلص إشارات وشواهد من بطون الدوريات والرسائل والمذكرات ، وتقريرات القناصل وكتب الرحالة ، وملفات القضايا « المحفوظة » أى المنسية . . وتجاوبت فى أفق آخر ، مواز هامشى ، أليف مع ذلك ، أصداء الوقائع المتناثرة ، والعبارات الشاردة ، وأطراف المآسى والمهازل الصارخة حينا والمكتومة فى أكثر الأحيان . ولم تزل تمتد بين تلك العلائم المترامية خيوط تتّبعها الناظر من بعيد ، وأعانه على نسجها عن كثب لفيف من ذكريات الصبا والشباب فى هذه الربوع التى كانت مسرح الأحداث .

فى الواقع العريض الذى أشرف عليه « القارئ » ، أفلتت الثورة من مدارجها المعروفة . لم تعد سلوكا واحدا يمليه على الناس ذلك النموذج الأخلاقى البطولى الحماسى الذى اعتاد الأدباء والخطباء تصويره ثابتا ثبات المثل الأعلى ، واعتاد النشء تطبيقه على كل رجل من رجالات الحركة ، لتمجيده أو لومه بمقدار

صدوره أو انحرافه عن ذلك المقصد الشريف . إنها شرارات انطلاق وتحرك وتجمهر وتلاحم ، لا فترة ثبات وتأمل وروية واعتزال . وفى وسط اضطراب المجتمع ، وتفجر القوى ، وانقلاب العلاقات القائمة ، تسفر العواطف وتشتد الأهواء ، وتتداخل المصالح وتتناقض ، ويخرج الناس من طور إلى طور ، مندفعين بحوافز ماضيهم وحاضرهم ، واقتصادهم وثقافتهم ... كلا ، لم تكن الثورة العرابية تصميما هندسياً قائم الزوايا ، أو عملية طبية تامة التعقيم . لقد حالت بينها وبين الجمود مؤامرات مفاجئة وضغوط متلاحقة وأزمات وطوارىء غيرت التشكيلات خارجها وداخلها مرارا . إنها معمعة ضخمة خاضها إلى جانب عرابى أو ضده أو بعيدا عنه عشرات ومئات وألوف ، أولئك الذين حوكموا معه وتضاربت أقوالهم تحت إرهاب القضاء الحكومى ، كما تضاربت أعمالهم فى انتهاز الفرص ، وأولئك الجنود المجهولون الذين ضحوا وتلاشى ذكر تضحياتهم ، فضلا عن جموع الصاخبين الصامتين من أهالى المدن والقرى شمالا وجنوبا ، أولئك الذين أصابوا الفهم أو أساءوا الفهم أو لم يفهموا شيئا . إنما الثورة فى إبانها تعايش يومى متشابك ، أداء مباشر من مجموع هذه الأعراض ، ملحمة نوازع شعب بأسره ، على مختلف أحواله وهمومه واستجاباته للواقع .

الصورة التى عرفناها مجردة ، ما أشد تعقيدها !

ولنضرب إطارا – على سبيل المثال – يقتطع ، من اللوحة الكبرى ، المساحة التى تحتلها شخصية « معروفة » كشخصية سلطان باشا . ولننظر إليها ملياً . رسمها أولا الشيخ محمد عبده فى سطور وهاجة بالبلاغة والذكاء :

« سلطان باشا لم يكن من أغبياء الأغنياء فى هذه البلاد ، بل كان فيه شىء

من الفطنة يزينه الغنى وتعلى قيمته مظاهر الثروة ، كان يفهم ما يقال ، ويرضى السامع إذا قال . ولكن هيهات أن يكون له بصر بالعواقب أو علم بمصاير الانقلاب فى الحكومات وتغير الأشكال عليها ، أو ما يصيب الأمم فى مجارى الحوادث من تقدم وتقهقر أفادته مناصبه السابقة أيام إسماعيل باشا شهرة وعلو صيت . حافظ على مكانته فى النفوس ببسطة فى الكرم امتاز بها على أمثاله ، فكان ينتاب منزله الأعيان والعلماء وأرباب المناصب ، وكان يجد فى نفسه لهذا علوًّا على أقرانه . كان مثله مثل الكثير من الأعيان فى استثقال يد رياض باشا فيما استأثر به من السلطة ، وفى استنكار تلك البدع التى جاء بها فى وزارته خصوصا إبطال السلطة الشخصية ، والأخذ على يد الأقوياء ، أن تطاول إلى استخدام الضعفاء برغم إرادتهم ، ووضع حدود يلزم الأعيان وأهل الثروة بالوقوف عندها فى علائقهم مع غيرهم ، فكان ممن يألم لهذه القيود ويعدها من الضربات التى أصيبت بها البلاد على يد رياض باشا وشركائه . توسم الفرج والخروج من هذه المضايق والوصول إلى مقام تعلو فيه كلمته على كلمة مثل رياض باشا ، ويتمكن فيه من أن يعيد نفوذه الشخصى فيمن دونه من عامة أهل بلاده ، عندما لاحت له بوادر الثورة ، ولمع فى عينه شرر الفتنة — عندما أحس أن عرابى يتلمس المعين على إنشاء مجلس النواب لوقاية روحه ومنصبه ظن وصدق ظنه أن عرابى لابد أن يصل إلى مايريد يوما ما ، فمن الحزم أن يتفق معه فى البداية ، ليكون له النصيب الأشرف من الفائدة فى النهاية ، فكان أول من مدَّ يده إليه ، وواثقه على التعاون فى طلب مجلس الشورى وأخذ سلطان باشا يستنزل بعض أعيان الوجه القبلى والبحرى فى رأيه ، ويحثهم على الاجتماع لتأليف

وفد يطلب إلى رياض باشا ويلح عليه فى الطلب أن يستصدر من الجناب الخديوى أمراً باستدعاء مجلس النواب ، وتخويله حق النظر فى وضع قانون يضمن له البسطة فى حقوقه حتى يكون كمجالس النيابات فى أوربا ، ثم يكون ذلك دستورا للبلاد تمضى عليه حكومتها ، فانصاع له بعض وعارضه آخرون ، ولم يتم له تأليف ذلك الوفد ، ولم ير من الحزم أن يتولى الطلب بنفسه من رياض باشا خشية الخيبة ، فانقلب إلى عرابى وحالفه على أن يجمع له أعيان القطر من الوجهين البحرى والقبلى وعلماءه على تعضيد طلبه متى انفصل رياض باشا ، ثم بارح سلطان باشا مدينة القاهرة ، وتوجه إلى المنيا فى أواخر شهر رمضان سنة ١٢٩٨ وقت اشتداد الاضطراب وتلاطم القوى (أغسطس ١٨٨١) .

«كنت معروفا بمناوأة الفتنة واستهجان ذلك الشغب العسكرى ، وتسوئة رأى الطالبين لتشكيل مجلس النواب على ذلك الوجه وبتلك الوسائل الحمقى ، وكنت أذهب لزيارة سلطان باشا أحيانا فأرى من لدن الباب عرابى وبعض رفقائه جالسين معه ورءوسهم بادية من النوافذ ، فإذا استأذنت للدخول وسمعوا اسمى أسرعوا بالفرار من محل الاستقبال العام إلى محل آخر ليختفوا ثم ينصرفوا »* .

هنا خليط من الكرم والوطنية والانتهازية ، مزاج من فطرة أهل الصعيد ومبادىء الديمقراطية الغربية ، وخلفية من سراديب مظلمة تلوذ بها ازدواجية العلاقات لا بين عرابى وسلطان فحسب ، بل بين كل منهما وبين إسماعيل ورياض والشيخ محمد عبده نفسه ...

* تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٢١٦ – ٢١٧ .

بداية لغز ظل يحير « القارئ » ، حتى وقع فى محفوظات وزارة الخارجية البريطانية ذات يوم – فى أثناء بحثه عن غير سلطان باشا – على وثيقة دامغة ،لا تحتمل التأويل . إنها مسودة برقية سرية أرسلها بالشفرة من الإسكندرية فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٨٢ قنصل بريطانيا فى مصر « سير إداوارد مالت » إلى قائد الحملة الإنجليزية التى أقبلت « سير جارنت وولزلى » يبلغه فيها :

« يرغب الخديو فى أن يُلْحِق بكم – بصفة مندوبَيْن مدنيين – على باشا مبارك المعيّن وزيراً للاشغال العمومية ، وسلطان باشا رئيس مجلس شورى النواب . وستكون مهمتهما استمالة الأهالى حيثما يتقدم الزحف وإعطاء معلومات عن سلطة ومنزلة الأشخاص الذين يأتون إليكم فى ظل الإعلان (بيان عصيان عرابى) . وكلاهما رجل كبير الشأن والتأثير فى البلاد ، وأرى أن هذا الاقتراح اقتراح وجيه . فهل توافق على إرسالهما ؟ » [F.O. 141/160 N104]

ثم برقيتان بالشفرة كذلك من نفس القنصل الرهيب فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٢ إلى « الأميرال سيمور » وإلى « نائب الأميرال سير فرانسيس سولوين » يوصيهما خيرا بسلطان باشا مندوب الخديوى ويرجو تيسير وصوله إلى الإسماعيلية بأسرع السبل . [Ibid., N118, 119]

ثم نص رسالة التوصية التى حملها سلطان بيده من « مالت » إلى « وولزلى » ، وهى أيضاً بتاريخ ١٨ أغسطس سنة ١٨٨٢ :

سوف يسلمك هذه الرسالة صاحب السعادة سلطان باشا رئيس مجلس شورى النواب ، الذى عينه جناب الخديوى مندوباً مدنياً ليصحب سعادتكم فى زحف الجيش على القاهرة .

وإذا أوصى سعادتكم بإيلاء سلطان باشا حميد مساعيكم ، لست بحاجة إلى إطالة الحديث عن خدماته أو تذكير سعادتكم بما أبدى من الوطنية – بوصفه رئيس مجلس النواب – فى مناصرة الخديوى .

وفى معية سعادته فريد باشا مدير الشرقية سابقاً ، وزكى بك أحد رؤساء تشريفات الخديوى ليقوم بالترجمة ، وستة سكرتيرين وستة قواسين »

[Ibid., N120]

شذرات متواترة ، تؤكد انشقاق سلطان باشا على الثورة الوطنية ، باسم الوطنية ! ولكن اللغز ما زال مستغلقاً ، فالمؤشرات التى تجمعت لا تتجاوز نهاية المطاف ونتائج سيرة مجهولة المقدمات .

وهذا ما بلبل خواطر المعاصرين من قبل ، برغم معايشتهم للوقائع . حسبنا أن نقرأ ما كتبه فى تلك الأيام – وبالتحديد فى ٢٤ أبريل سنة ١٨٨٢ – طالب مصرى نكرة كان يدرس الطب فى جامعة مونبلييه بفرنسا ، واسمه « محمد توفيق » ، إلى عرابى باشا شخصياً :

« جهادية ناظرى سعادتلو أفندم حضرتلرى

... قد دخلتنى بعض الريبة مما نشرته الجرايد الإفرنجية وسكتت عنه الجرايد العربية . ومع كون ما ذكر فى الجرايد المذكورة مما يوجب الريب ، إلا أنى لا أعترف احتماله أبداً ، فضلا عن تصديقه . ولا يتصور عاقل ما نسب لحضرات النواب ولا سيما لسعادة سلطان باشا رئيس المجلس من انضمامه مع البدو لمضادة الهيئة الحالية التى لا هناء لها إلا مع إصلاح البلاد ورواج حال أهلها ، فإن المعلوم فى سعادته أنه مصرى النزعة ، حر الضمير ، محيط بكل

ما ألمّ بالبلاد من الظلم والجور ، حتى إن سعادته لم ينج من شر الحكومة السالفة التى كادت أن تغدر به ، بل غدرت بسعادته فعلا . ولو لم يكن لسعادته فى جميل الأعمال وحسن الطوية ، وخلوص النية حالة كون سعادته من أعظم وجهاء الأمة شأناً وقدراً فإنى فى غاية الاستغراب من ذكر ما نسب لسعادته خصوصاً ، ولبقية حضرات النواب عموماً . وأرجو من الله سبحانه وتعالى أن يهدى العموم لأقوم طريق ، ويوفق سعادتكم لإجراء ما يكون فيه صالح الأمة المصرية ...

[دار الوثائق القومية – القاهرة : محافظ الثورة العرابية : ٨ – ٥٣ – د – ٢ وثيقة ٥٥]

وفى الصفحات التالية – بعد انقضاء قرن – يشاطر جيل جديد من شباب مصر تلك الحيرة الملحّة المؤثرة التى عبر عنها لزعيم الثورة زميلهم القديم المغترب ، الذى لم يدخل « التاريخ » .

القاهرة – جنيف

مايو ١٩٨١

ا . ل

سلطان أفندى

١ – تحقيق

سرعان ما أصبح المدرس الجديد – الأستاذ « فخرى » – أحب شخصية إلى قلوب التلاميذ فى مدرسة « أحمد عرابى الثانوية » .

إنه فتى ألمعى ، كان أول خريجى قسم التاريخ بكلية آداب القاهرة فى العام الماضى . وقد كافأته وزارة التربية والتعليم بتعيينه رأساً فى العاصمة لا سيما وهو يحرص على أن يظل متصلا بجامعتها ، حيث أخذ فى إعداد بحث لدرجة الماجستير عن « أصول الحركة الوطنية فى مصر الحديثة » .

حين ترى هذا الأستاذ الشاب فى الفناء مع بعض تلاميذ السنة الثالثة ، لا تكاد تميزة منهم : فهو أسمر طويل الشعر مثلهم ، مرح متدفق الحركة ، يحاورهم بالنكتة ويشاطرهم هوايتهم المفضلة – كرة القدم . أما فى « الحصة » ، فيرتجل الحديث إليهم ارتجال محاضر متمكن . بسحرهم بغزارة شرحه وحيوية إلقائه ، وتسرى فيهم حرارة شغفه بالمعرفة فتدفعهم إلى الاستزادة من المعلومات . وإذا هم يمطرونه بأسئلتهم عن الكثير من التفاصيل ، فلا يتحرج من الاستطراد ليرسم لهم صورة واقعية عن العصر الذى يتناوله .

هكذا تحولت مادة التاريخ الجافة إلى متعة حقيقية لدى تلاميذ الأستاذ « فخرى »

واليوم فى ختام درسه الشائق عن الثورة العرابية ، استعرض أهم الأسباب التى أدت إلى هزيمة جيش الفلاحين ، الذين نهضوا لتحدى طغيان الخديوى . وكان الحماس فى اختمر فى نفوس التلاميذ إلى حد جعلهم يرفضون فكرة فشل تلك الثورة الشعبية . اكفهرت الوجوه وتوتر الجو . خطفت لحظات عصيبة . إنهم يجيلون أنظارهم المتوقدة بيت الأستاذ فوق منصته ، وبين صورة الزعيم أحمد عرابى التى تتصدر الجدار من ورائه ، والتى اجتذبتهم فى تلك الآونة . وكأنما انبعثت فيها الحياة فجأة ، كادوا جميعا يتكلمون بصوت واحد . إلا أنهم صمتوا وعادوا إلى الإصغاء ، إذا رأوا زميلهم « عادل » الجالس فى الصف الأول – وهو بالفعل أنجبهم وخير من يعبر عن رأيهم دائماً – يرفع يده طالباً الكلمة من الأستاذ :

عادل : « الموضوع فيه نقطة غير واضحة ، ومحيرة جدا : التدخل الاستعمارى ده شىء ثابت ، وغدر الخديوى بالثورة شىء مفروغ منه ، إنما كيف ننسب الخيانة للمصريين أنفسهم ، لأحسن الوطنيين ، ولسلطان باشا بالذات ؟ « سلطان » كان راجل خطير ، جاهد فى الحركة الوطنية لغاية ما أصبح رئيس مجلس النواب . وكان بيجمع أعضاء « الحزب » الوطنى » سرًّا فى بيته ويطالبهم باغتيال الخديوى توفيق . .

الأستاذ – صحيح .

عادل : « إزاى بقى سلطان باشا يخون الثورة ؟ مش معقول ! تهمة الخيانة

دى لازم تهمة ملفقة ، تهمة أشاعتها الدعاية الإنجليزية فيما بعد لطعن وطنية المصريين فى الصميم . المستعمر يتعمد تجريح الأبطال بقصد القضاء على المثل العليا اللى نادوا بيها ، وبث روح اليأس فى الشعب . . »

الأستاذ – « على مهلك ! ماتبقاش عاطفى ! إحنا يهمنا فى التاريخ دراسة الوقائع أولا . وخيانة سلطان باشا للأسف مسألة تؤيدها الوقائع . .

ويخطو الأستاذ نحو خريطة القطر المصرى المعلقة ، فيواصل شرحه وهو يشير إلى مواقع الدلتا التى يذكرها :

– . . « سلطان » ترك عرابى المتحصن فى كفر الدوار ، وانضم للخديوى توفيق المحتمى فى إسكندرية بالأسطول البريطانى . « سلطان » ضلل ضباط عرابى ، أوهمهم أنه « عاصى » ومغضوب عليه ، وأغراهم بالانحياز للدولة العثمانية . « سلطان » عرض خدماته سراً على الإنجليز .

– ياخبر !

– لما الإنجليز تأكدوا من قوة استحكامات عرابى فى كفر الدوار ومن المعركة المفروضة عليهم إذا حاولوا دخول البلاد من جهة إسكندرية ، غيّروا خطتّهم ، وتحركوا للشرق ، ونزلوا غدرا من قناة السويس مين كان فى استقبالهم هناك ؟ سلطان باشا . سلطان راح بنفسه انتظر « الجنرال ولزلى » على البر ، وأرشد الجيش الإنجليزى فى منطقة التل الكبير . وزى الهوا فتح لهم السكة بين الأهالى ودلّهم على الطريق إلى القاهرة . قائد جيش الاحتلال دخل القاهرة على يد سلطان باشا وبإرشاده . . .

لا يتمالك الطلبة مشاعرهم . تندّ عنهم صيحات استنكار .

الأستاذ – أنتم مغرورين فى « سلطان » زى ما اتغر فيه عرابى . وياريت عرابى فطن إلى شخصية سلطان الحقيقية – شخصيته المزدوجة – كان احترس منه فى الوقت المناسب . يمكن كانت الثورة تنجح فى الداخل . .

عادل – أربع كتب موجودة فى مكتبة المدرسة عن الثورة العرابية قريتهم بالكلمة ، ومافهمتش سر خيانة سلطان باشا دى . . ولا أزال غير مقتنع بأنها صحيحة . .

الأستاذ – وباين ياعادل إن بعض زملاءك برضه غير مقتنعين . لازم تتصوروا كيف تفاعلت شخصية « سلطان » مع ظروف العصر . إنما دى حكاية طويلة . (ينظر إلى ساعته) خسارة ! الجرس ح يضرب . ما فيش وقت .

أصوات – نيجى بعد الظهر مخصوص !

الأستاذ – أنا عندى فكرة أحسن : بكرة الجمعة ح نقضى النهار فى الجيزة . اللى جاى رحلة الهرم يرفع إيده .

بالإجماع يرفع التلاميذ أيديهم .

الأستاذ – تبقى فرصتنا أوسع ، علشان تسمعوا القصة بالتفصيل . ومش ذنبكم فى الواقع أنكم ماتعرفوش سيرة سلطان باشا ، لأنها لغاية النهاردة مادخلتش فى الكتب المقررة عليكم .

ويدق الجرس ، فيجمع أستاذ التاريخ أوراقه ويتجه إلى باب « الفصل » يلحق به طالب آخر ، ويحيط بهما الباقون .

– وليه ما كتبوهاش ؟

– علشان فيها بعض المواقف المحرجة أخلاقيا . والحاجات الخارجة دى يجوز

تؤثر على ضعاف النفوس .

– إنما احنا عايزين نسمعها بالظبط .

تلميذ آخر – بالكامل !

الأستاذ – إن شاء الله . انتو رجالة ، ومش ح أخبى عليكم حاجة .

ويهتف تلميذ مهرج : يعيش الأستاذ فخرى !

٢ – أول الخيط

عند سفح الهرم الأكبر ينزل التلاميذ من سيارة الرحلة . رؤوس مشرئبة ، وعيون مستبشرة ترمق الصرح الشاهق . وبعد أن يمرحوا بين الأهرام وأبي الهول تلتف حلقتهم حول الأستاذ « فخرى » فى إطار تلك الصخور القديمة ، يوحى تجمعهم بالتئام صورة الشخصية المصرية عبر القرون ، برغم تقلب الدهر . وعلى كل الوجوه آيات التطلع إلى الحديث المرتقب لاستكشاف صفحة مجهولة من تاريخ الأمس القريب .

الأستاذ فخرى – شايفين ؟ كل حجر فى الهرم بيتخذ من الحجر اللى تحته قاعدة يرتكز عليها . وقصة كفاح أى شعب ، جيل بعد جيل ، عبارة عن هرم مرصوص حجر فوق حجر . كل حدث هو نتيجة لحدث سبقه ، وفى نفس الوقت مقدمة للحدث التالى ، وهكذا . . والثورة العرابية – زى ما قلت لكم امبارح – مش أول ثورة قمنا بيها ضد استبداد الأسرة الحاكمة الصعايدة ثاروا بدرى ضد محمد على فى مدينة « دراو » . الكلام ده كان سنة ١٨٢٤ . إنما الفلاحين ما عرفوش ينظموا صفوفهم تحت قيادة ذكية موحدة فتشتتوا . بعدين

ثاروا ثورة أكبر ضد « سعيد باشا » فى منطقة المنيا ، بزعامة راجل مجهول النهارده ، كان شيخ قبائل البدو المتناثرة فى الصحراء – اللى احنا عليها دى من الفيوم للشلال .

عادل – اللى اسمه « باقور الحنفى » ؟

الأستاذ – عظيم ياعادل ! أنت بتقرا كتير . . اسمه « باقور الحنفى » . وطبعا عارفين إن سلطان باشا منياوى . أيامها ماكانش باشا كان لسه شاب صغير متخرج من الكتاب . واللى كان يعرف يقرا ويكتب ويحسب فى الوقت ده كان على طول يتوظف فى الإدارة ، ويبقى « فلان أفندى » . وحركة « باقور الحنفى » – لولا سلطان أفندى – كانت تتحول إلى ثورة شعبية متكاملة تقلب إسماعيل باشا وتغير التاريخ . .

استطلاع التلاميذ يشتد

– . . . واللى عمله « سلطان أفندى » سرًّا فى « باقور الحنفى » ح يعمله « سلطان باشا » فى عرابى . الخيانة – ح تشوفوا – لها جذور . وعرابى كان قلبه طيب ، فوثق بسلطان ، ورحب بيه ، خصوصا وسلطان راجل من الأعيان يمتلك آلاف الأفدنة فى مديرية المنيا ، وبثروته ونفوذه وذكائه كان يمثل سند قوى للثورة . فين الشرقية بتاعة عرابى من المنيا بتاعة سلطان ؟ عرابى قطعا ماكانش يعرف حكاية الثروة والأطيان دى اللى هبطت مرة واحدة على « سلطان أفندى » فى شبابه . يعنى أصلها منين ؟ تخيلوا موظف صغير بسيط فى « الدايرة السنية » . . .

وينطلق الأستاذ « فخرى » فى عرض الأحداث ، ووصف البيئة ، وتحليل التطور الذى مرت به شخصية « سلطان » فتدب الحياة فى جانب مجهول من ذلك العصر ، وترتسم فى مخيلة التلاميذ المنصتين سلسلة من الصور المتلاحقة المؤثرة .

٣ - كاتب فى « الدائرة السنية »

« سلطان أفندى » – وهو فتى ذكى النظرات يرتدى حلة معروكة بالية ، يصعد الدرجات الحجرية العريضة التى يتألف منها السلم الخارجى لبناء حكومى صغير من طابق واحد ، ثم يدخل من بابه العمومى الذى يحمل – على مصراعه غير المفتوح – لوحة نحاسية : « الدائرة السنية – مديرية المنيا » يجتاز ردهة يدلف منها إلى مكتبه : غرفة ضيقة ، بها منضدة كالحة ، عليها أوراق ومحبرة ، يجلس إزاءها على كرسى خشبى غير وثير .

يهرع إليه الفراش « عبد الصبور » – وهو عجوز عميق التجاعيد يبدو الفقر على ملابسه الرثة – فيحييه باحترام ، وكأن هذا الكاتب من علية القوم وأكبرهم منزلة وجاها ! فيشكو « سلطان أفندى » تواضع حاله للفراش فى لهجة تشوبها مرارة الغيرة من رغد رؤسائه – الشراكسة والأتراك – الذين ينعمون بامتيازات عظيمة دون أن يبذلوا أى مجهود فى العمل ، العمل الذى يتكدس بالتالى على عاتقه .

– ربنا يوسعها عليك ! مافيش أحسن من الستر ياسلطان أفندى ؟ ويبعدك عن الحرام !

وتقع عليه العبارة الأخيرة – برغم أنها عادية مبتذلة – وقع الصاعقة يرتبك ، تتغير سحنته ، إنه يظن أن الفراش يشير بذلك إلى صفقة سرية عقدها أخيرا مع بعض تجار الحشيش ، لتسهيل تهريبه لهم عبر مديرية المنيا تحت ستار وظيفته الرسمية ، التى تعفيه من الشبهات . تنقلب شكوى الزمان ولهجة التعاطف مع الفراش الشيخ إلى نفى غامض ، فانهار دفاعى ، وتهديد صارم . يتراجع الفراش مذعورا . ثم يعود محاولا استرضاء « الأفندى » ، فيميل عليه وينبئه بخبر سار :

– أنا عندى بشرة خير لسعادتك : « زيدان » قواص الباشا المدير فات بدرى هنا سأل عليك .

– عاوز إيه ؟

– قال الباشا المدير طالبك تقابله .

– يا خبر اسود !

– اسود ليه كفى الله الشر ! دانا فهمت إن قصده يشغلك فى مكتبه . ربنا يتمم الترقية . وتبقى تفتكرنا هناك ياسلطان أفندى !

– انت فهمت كده ؟ . . ماجابش سيرة حاجة تانية ؟

– وأنا لحقت آخد وأدى معاه ؟ ده كان مستعجل . وقال الباشا ذات نفسه مستنظرك فى الديوان قبل الضهر .

– قبل الضهر . . . طيب خليك انت هنا . أنا رايح مشوار صغير وراجع لك بسرعة . اللى يسأل عنى خليه يستنى عندك .

وقبل أن يتم كلامه كان قد انصرف يعدو هابطا درجات السلم وفى الفناء يستدير إلى حيث بغلة مسرجة . يمتطيها ، ويركض إلى خارج البلدة .

٤ – قاع البحر الأخضر

حقل شاسع من قصب السكر الكثيف ، تضطرب ذوائب أعواده فى الريح ، فتسفر أمواجها أحيانا عن جذع « سلطان أفندى » ، مندفعا فى عناء . ذراعاه محمومتان تلاطمان الخضرة التى تغمره . قرب النخلة التى يتجه صوبها فى أقصى الحقل غربا ، يستخفى رجل ملثم ، لا يكاد يلمح القادم حتى يعمر بندقيته ويتأهب لإطلاقها . غير أنه يتوقف .

– مش تنبهنا ياسلطان أفندى بالإشارة ؟ دانا كنت ح اطخ فيك لولا عرفت بدلتك !

– ما فيش وقت يا « عبود » ! شغلتنا انكشفت . المدير أخد خبر وطالبنى . وكلنا ح نروح فى داهية لو أى واحد من الرجالة اتمسك واتكلم . خليهم يسيبوا الزنابيل فى مطرحها ويزوغوا . ما حدش يهوب ناحيتها خالص . ومهما يحصل مافيش حد يجيب اسمى على لسانه ، وإلا طبينا كلنا !

– ما تتخضش كده ياسلطان أفندى ! ودا كلام ؟ الزنابيل دى مطلوب فيها خمسميت محبوب . نتركها للبوليس يلحسها ؟ ونصيبك انت اللى اشترطته

علينا ، تفرط فيه ياشاطر؟ والا كفاية عليك المقدم : ظنك الرجالة ح تسيبهولك ؟

– دانا معذور فى الفلوس . . .

– اثبت بقى يابطل !

والعمل إيه ؟

– إن كان ع المدير بتاعك ، ده بَجَم تركى . أنا كنت فاكر حد تانى ماتعرفش تحاوره بصنعة فهلوة ؟ ماتعرفش تلف بيه ؟ . . واحنا من هنا لبكره الفجر نتصرف . أمال افندى ازاى ؟

– أصل دى أول مرة ياعبود . بس تيجى سليمة ، واحنا نستعدل !

– (ساخرا) شد لنا حيلك ياسلطان أفندى !

٥ – بصاص

يهش قواص المدير ويبش لسلطان افندى ، المتوتر المهموم . ويدخله على « خورشيد باشا » .

من شدة بلبلة سلطان ، تكاد تفلت منه اعترافات غير مباشرة بتواطؤه مع عصابة المهربين . ولكن « خورشيد باشا » التركى يعوزه الذكاء من ناحية ، ولا يحسن . من ناحية أخرى – فهم اللغة العربية التى يتكلمها بركاكة مضحكة .

يتنفس سلطان الصعداء ، عندما يتضح له أخيرا الغرض الذى من أجله استدعاه المدير :

لقد أتى بالأمس إلى المديرية رسول خاص من طرف الخديوى إسماعيل ليتحقق من شائعات مزعجة بلغت أسماع سموه . يقال إن الشيخ « باقور الحنفى » قد رجع إلى الصعيد ، بعد غيبته الطويلة فى تونس . ولو صحت هذه الأنباء لكانت المفاجأة وبيلة العواقب على الخديوى . منذ اثنتى عشرة سنة استقر فى الأذهان أن باقور – بعد أن بطش سعيد باشا بأعوانه – قد هاجر نهائيا من

مصر ، وأن معظم القبائل الموالية له قد تبعته إلى أقاصى الصحراء الليبية . فما معنى عودة « شيخ العرب » الآن ، وعودته سراً ؟ لابد أنه أزمع الثأر .

وهل ينسى الشيخ باقور غدر سعيد باشا ؟ هل ينسى وحشية زبانيته ليلة دهم ضباط « المفروزة » بيت الغوازى ببلدة الروضة ، وقد اجتمع فيه البدو مع خيرة شباب الفلاحين لكى يدبروا – تحت ستار اللهو – خطتهم المشتركة للقضاء على الوالى ؟ أطبق عليهم أولئك العسكريون العتاة من كل المنافذ ، ونقلوهم فورا إلى ضفة النيل الشرقية . وهناك ، فى الفجر ، قبل أن تتاح لمخلوق أية محاولة فى سبيل إنقاذهم ، ربطوا الواحد تلو الآخر إلى فوهة مدفع أطلقوه . تناثرت مع البارود الملتهب أشلاء الرجال ، صعق الرعب أهل الصعيد ، واضطر البدو إلى الاختفاء فورا .

هكذا يكون الردع ! وبلهجة المتشدق يطنب المدير التركى فى إعجابه بما كان عليه « جنتملكان سعيد باشا » من العنف والجبروت . والحق أن قصة ذلك الإرهاب القديم لم تكن تعنى « سلطان أفندى » شخصياً . لقد سمعها ضمن ما يرويه أهل الجيل السابق من حكايات كالأساطير . أما هو فلا يفكر فى الماضى ، بل يفكر فى المستقبل . والمستقبل بالنسبة إليه هو الإثراء السريع عن طريق صفقات التهريب التى جنح إليها ، ليبلغ مثل ذلك الترف الذى يتمرغ فيه الباشوات .

ولكن المدير يعتقد أن « سلطان أفندى » هو خير من يأتيه بالخبر اليقين عن « باقور » دون أن يلفت الأنظار . ذلك أن خاله « فتح الله » هو شيخ البلد فى الروضة ، التى يقال إن باقور قد ظهر فيها أخيرا .

وإزاء فتور « سلطان أفندى » يظن المدير أنه يتجاهل ويتمنع طمعا فى مكافأة أو رشوة. فيساويه : يمزج الوعود بالوعيد ، والتلميح بالتصريح. وسرعان ما يندمج « سلطان » فى المزايدة ويتعهد بأن يتجسس – خلال اتصالات خاله فى الروضة – على باقور الحنفى » ألد أعداء الخديوى.

ويصدر المدير تعليمات لمأمور الروضة بتسهيل مهمته. ها هم أولاء تحت تصرفه أيضا ، لنفس الغرض ، « غزولى » و« شهبندر » و« عرفان » الذين يقدمهم إليه خورشيد باشا بوصفهم « أحسن بصاصين فى المحروسة ».

٦ - جولة الشيخ فتح الله

« سلطان أفندى » ، فى الطريق الزراعى إلى الروضة ، متردد موزع الخاطر . إنه يكره السادة الأتراك لعجرفتهم وظلمهم واستغلالهم إياه ، ولكن آمال الغنيمة والمكافأة ، وأحلام العظمة والسطوة ، تتراقص أمام عينيه ، وتدفعه إلى انتهاز الفرصة . فليحادث خاله على كل حال ، ويقابل المأمور ، وليأخذ أوفى المعلومات عن باقور ، لا ليذيعها فورا ، وإنما ليحتفظ بها لنفسه لعلها تنفعه مستقبلا فى توسيع شبكة التهريب . ومن يدرى كيف ستجرى الأمور ؟ لابد له من أن يكون على بينة من الواقع حوله ، حتى يستطيع أن يشق سبيله إلى القمة بإلقاء الكلمة المناسبة فى الوقت المناسب .

يقصد فى بلدة الروضة دوار خاله الشيخ فتح الله ، فيعلم أنه خرج إلى جولة فى « الغيط » . لا ينتظره بل يتعجل لقاءه يخترق الحقول المجاورة لبيوت الفلاحين الطينية الواطئة المتلاحقة ، ويمعن فى الأرض المزروعة نحو الغرب .

على الأرض هنا وهناك ، انكبَّ رجال سُمْر مهزولون يراهم من بعيد — وقد انحنت ظهورهم — كأنهم حشرات سوداء تدب ، أو دواجن تنبش وتنقر .

بئس العبيد المسخرين ! يقترب من بعضهم فإذا وجه بشرى يرتفع ، ويتعرفه ، ويحييه بابتسامة إنسانية مؤثرة ، ويرحب بمقدمه إلى « الروضة » . .

أخيرا يلمح خاله بقامته الطويلة ومنكبيه العريضتين موليًّا ظهره للطريق ، وقد أخذ يخاطب شخصا فى حفرة . إنها فلاحة تشد الشادوف وهى تلهث . الحقل تشقق من الجفاف . وفى الظل الشحيح تحت الشجيرات الضامرة بجوار الشادوف أربعة أطفال تكسوهم الأسمال . أصغرهم منتفخ البطن بادى الكساح مستسلم لأسراب من الذباب ضاربة طنانة .

سمع سلطان – وهو يدنو من خاله – طرفا من الحديث :

– ونجيب للميرى منين ؟ مابقاش حيلتنا حاجة واصل ! الكردان بعته عمنول ، ولهف حقه المأمور علشان يطلع « عوض » من الحبس . والجاموسة – اللى عيالى دول ماداقوش لبنها – خدوها الديانة ، الله مايبارك لهم فيها !

– ورأيه إيه « عوض » ؟

– كلمته بعيد عنك من طاقة السجن . قال : « الأمر لله ياوليه ، بس انتى ماتسيبيش الزرع ينشف شدى الشادوف على قد حيلك ! » أعمل إيه ؟ مكتوب علينا !

– الحال ده لازم يتغير !

– أنا فى عرضك ياشيخ فتح الله تسترجى المأمور ! مابقاش عندى حتى ولا فرخة أروح له بيها .

– وفى شرع مين يا« حليمة » اللى بيموت م الجوع يدى لقمته للشبعان ؟

– يلطف بعبيده !

– ربنا كريم ! واللى يقدرنى عليه أعمله .

– يخليك لينا ، وينصرك عليهم !

ويستدير الشيخ فتح الله راجعًا للبلدة كى يتشفع لدى المأمور لإطلاق سراح « عوض » فيلتقى وجها لوجه بسلطان . يستفسر فى حدب عما أتى به ، فيجيبه سلطان منافقا :

– أصلى مشتاق عليك ياخالى .

– وبعدين تسيب شغلك من الصبح علشان مشتاق تشوف خالك ؟ انت لازم تستحرص ياسلطان . ما تخليش حد من التراكوه يقول لك كلمة فارغة !

– فشر ! دا الباشا المدير ذات نفسه مكلفنى بمشوار .

– انتى بقى جاى تقابل المأمور ؟ ده سأل عليك عشية .

– أصل الباشا المدير كلمه عنى . لكن أنا قلت أفوت عليك فى الأول .

– جيت فى وقتك ، أنا رايح أسترجاه لعوض .

– بس ما تستعجلش كده ، خلينا ناخد راحتنا فى الكلام . .

٧ – لغز باقور الحنفى

يستدرج « سلطان » خاله – وهما سائران – إلى الحديث عن « باقور » الحنفى ، محاولا بذلك أن يستقى أقصى ما يمكن من المعلومات ، ويتكلم الشيخ فتح الله عن الحاضر والمستقبل بتحفظ ، ولا يفيض إلا فى ذكر الماضى . وهكذا لا يظفر « سلطان » المستطلع بكل ما يبتغيه من أنباء ، غير أن صورة الأحداث القديمة تكتمل فى ذهنه وتتضح ، ولا بأس من مراجعة الوقائع السالفة ، فهى الأساس الذى سيبنى عليه مغامرته .

مع عبارات خاله العارف بالقبائل والعصبيات ترتسم فى مخيلته قصة اختفاء « باقور » منذ اثنى عشر عاماً ، على أثر تنكيل سعيد باشا برجاله ، يتصور « سلطان » كيف توارت خيام البدو المضروبة على حافة الوادى المزروع ، كيف طوتها عن الأبصار قوافل متلاحقة ، ذابت بين كثبان الصحراء . عندئذ ظنت الحكومة أن الخطر قد انجلى ، وأن الأمن قد استتب للوالى . ولكن « سوق السبت » التى تجمع أهل الروضة والقرى المجاورة ، لم تلبث أن شهدت ، أسبوعا تلو أسبوع ، نفرا من البدو يقبلون مبكرين على إبل فائقة السرعة ثم

ينطلقون قبيل المغرب عائدين من حيث أتوا ، فى سحابة رملية كثيفة تحجبهم عن الأنظار ، كانوا فى كل مرة فى أثناء البيع والشراء يتبادلون الأخبار مع الفلاحين .

وفى ظل الاطمئنان الجديد ، بزغت ذات يوم من ضباب الفجر فى الشمال ، مع أشعة الشروق البرتقالية ، بين زرقة البحر وصفرة الرمال المترامية ، صفوف جرارة من الإبل ، تسعى نحو أرض النيل . كانت تحمل المتاع والنساء والأطفال ، وتحرسها جماعات من الفرسان متدثرين بأحرمتهم البيضاء ، وقد علقوا البندقيات على أكتافهم . إنك لا تستطيع أن تأخذ البدوى على غرة ، فإن يده ، من تحت حرامه ، تقبض دائما على طبنجته . والصحراء تعلّم المرء أن يدرك ما يجرى خلفه . إذا كان ثمة متعقبَ ، أبطأ الفرسان سيرهم ، وأفسحوا الطريق ، ولزموا جانبا ، حتى يتعرفوا الطارىء عليهم . حياة مثيرة ، تتلخص فى الصمت والتحفز والحركة .

إذن لقد عاد البدو إلى الوادى ، دون هدنة رسمية ، تدفعهم رغبتهم فى الاستقرار والاشتغال بشىء من الزراعة بعد سنوات التشرد .

سلطان : على خيرة الله . والشيخ « باقور » ياترى رجع ؟

فتح الله : الله أعلم .

سلطان : هو أنا غريب ياخالى لما تخبى عنى ؟ مافيش حاجة تحصل نواحى الروضة وتخفى عليك .

فتح الله : بلاش الموضوع ده دلوقت ياسلطان . احنا قرب المركز ، والحيطان لها ودان .

حسنية

ويدخلان مبنى المركز ، فى ركن من قاعة خاوية متربة ، منضدة ابتعد المأمور بكرسيه عنها ، وجلس يدخن الشيشة ، وقد تربع بإحدى ساقيه على المقعد بينما تدلت ساقه الأخرى وحطت على البلاط . وعلى كرسى تتململ غانية مكحلة العينين متبرجة تدعى « حسنية » وهو يستمتع بمخالستها نظرات شهوانية ، ومجاذبتها أطراف حديث يخلط فيه الغزل الماجن بالتهديد الغليظ . ويظل يلهو بمعابثتها عن تأوهات الفلاح « عوض » ، هذا الذى طُرح أرضا فى ركن بعيد ، وشد أحد الخفراء قدميه فى الفلقة ، وانهال عليهما آخر بالعصا ، ووقف ثالث يعد فى آلية صارمة وبصوت مرتفع كل ضربة يوقعها الضارب العاتى على اللحم الآدمى .

لا يكاد المأمور يعتدل فى جلسته أو يحتشم ، حين يقبل عليه « الشيخ فتح الله » . ولكنه إذ يلمح « سلطان أفندى » داخلا وراءه ، ينهض ويحييه ، ويجلس الجميع ، دون أن ينقطع توقيع العصا وأنين الفلاح . الشيخ فتح الله يستنكر تعذيب رب أسرة برىء ، بيد أن المأمور لا يستمع لحجج الإنسانية

والعدالة ، وما أقولها على لسان شيخ البلد الجليل ! إنما هو يعفو عن « الخرسيس عوض » لمجرد الاحتفاء بقدوم سلطان أفندى من طرف الباشا المدير.

وينصرف الشيخ فتح الله مع عوض ليضمن إفلاته من قبضة العسكر المرتشين الذين قد يحجزونه تعسفا.

لا يدرى سلطان أفندى أهو سعيد لأنه أنصف مظلوما ، أم لأنه أصبح موضع احترام المأمور وتملقه . إنه يزداد فى هذا المجلس اعتدادا بنفسه ، ويطلق لطموحه العنان.

ولماذا لا يقفز إلى قمة المجد والثراء قفزا بتسليم « باقور » للخديوى ؟ إن أمامه الآن أكثر من مصدر للتوصل إلى ذلك الباقور . فهذه الغانية التى سبق أن رآها منذ بضعة أسابيع تحيى بغنائها ورقصها عرسا دُعى إليه ، فتاق إلى اتخاذها خليلة له ، ولكنها صدته لفقره ، قد جاءت اليوم بخبر هام . جاءت منفعلة تشكو وتستعدى السلطات . جاءت تصب جام سخطها وغيرتها المحتدمة على الشيخ باقور نفسه . فقد بلغها هذا الصباح أن الرجل عقد قرانه على « زنوبة » الفلاحة الحسناء ، أخت داود صاحب « العزبة الغربية » ، على حين كانت ترمى - وهى الغانية الخبيرة باستهواء الذكور — إلى اصطفائه خليلا فحليلا ، متوهمة أنه قد وقع فى شراكها ليلة حضر متنكرا إلى « بيت الغوازى » لملاقاة بعض التجار الغرباء.

سلطان : يعنى ماتحطيش عينك إلا على شيخ العرب ؟

حسنية : فشر ! ده بيت « الست بنبة » مفتوح على حسّى أنا ! من آخر الدنيا الأعيان بتيجى الروضة لمين ؟

سلطان : [بابتسامة متخابثة] لست الحسن . . والدلال !

حسنية : أهو اتعدل كده يادى الأفندى !

المأمور : وبعدين ياحسنية هانم ؟ انتى ما تعرفيش سلطان أفندى والا إيه ؟

حسنية : ياحسرة !

المأمور – [يقاطعها] عيب ! ده سلطان أفندى صاحب الباشا المدير . وغرضه كمان يجمعك على شيخ العرب .

حسنية : وهو ح يروح عى فين ؟ خليه يكتب كتابه ! قال « زنوبة » قال ! دى تعرف تعمل له إيه ؟ باقورة ده سيد الرجالة ، وما يلزمه إلا ست الجمالات ! ياويلك يافلاحة يابنت الفلاح لما ادخل عليكى ضرة وألوّعك عليه ! وحياة عينيك الزُّرْق يابيه يا آخده منها ياتاخدوه !

المأمور : احنا مستعدين .

سلطان : ناخدك وناخده !

حسنية : نعم ياادلعدى ؟ ؟

سلطان : بس حلمك علينا ياست الحسن والدلال [يميل عليها ويهمس فى أذنها بكلام غير واضح] .

حسنية : الليلة ؟ . . قال ماترعلوا ع اللى رايح قبل ما تشوفوا اللى جاى ! . . خليتكم بعافية !

وبعد انصرافها يتداول سلطان مع المأمور ، يحصران المصادر التى يمكن أن تؤدى إلى اعتقال « باقور » . وهى الآن ثلاثة : داود وعزبته ، حسنية وبيت الغوازى ، ثم الشيخ فتح الله .

– سيب لى خالى أنا أتفاهم معاه .

– دانا ماسيبتش الشيخ فتح الله إلا عاشان خاطرك ياسلطان أفندى لأنه بلغنى أنه شريك « باقور » فى الزراعة ، لكن مارضيتش أعمل معاه شغل الميرى .

– عملت طيب ! ده خالى مايحبش أبدا بشغل الميرى. بالعنف مش ح تاخد منه حق ولا باطل . خليه علىّ أنا وريّح نفسك من ناحيته .

يتفقان على ذلك . ويخططان أن يستطلع كل منهما المصدرين الآخرين يستطلعهما المأمور بوسائل السلطة الرسمية ، وسلطان بعلاقاته الخاصة ، على أن تظل تحرياتهما طى الكتمان .

٩ - الأحلام فى بيت الغوازى

تضاعفت نشوة « سلطان أفندى » وهو يسترسل الآن فى أحلامه ، مستسلماً من ناحية لإغراء العظمة والسيطرة بعد جلوسه إلى « البيك المأمور » والباشا المدير » ، ومن ناحية أخرى لإغراء الجنس والمجون بعد أن وجد « حسنية » النافرة فى متناول يديه . إنه يستشعر أن مستقبلا من الملذات المحرمة – أى أشهى الملذات – سينفتح أمامه ، إذا واصل تعقب « باقور الحنفى » . ويالها من فرصة ذهبية تتيح له اليوم بحجر واحد أن يصيب عصفورين : جاه الرفعة الاجتماعية وهذه الغانية البضة الملساء ، التى زادها فتنة فى نظره استعصاؤها عليه بالأمس .

ويطغى هذا الإغراء المزدوج على ضميره . إنه فى قرارة نفسه معجب بشهامة خاله الشيخ فتح لله ، الذى يقود فى الخفاء حركة المقاومة بين الفلاحين ويوقظهم من سبات التوكل والسلبية . ولكن ماقيمة هذه الحركة فى الواقع المباشر ؟ هيهات أن تزحزح عرش الخديوى المستبد ! أما الاقتراب من الخديوى بتأدية خدمة كبرى له – مثل اعتقال « باقور » – فقد يكون وسيلة أجدى لإصلاح فساد الحكم ، وذلك بمساومة الخديوى نفسه نظير منفعته ، وإملاء

بعض الشروط عليه . ولماذا يسد « سلطان » – بتحرج أخلاقى عقيم – هذا الطريق الذى يفضى به رأساً ، أى بواحد من أبناء البلد ، إلى منزلة عليا يستطيع أن يستعلها بعد ذلك فى إسماع كلمة الفلاحين ،وفرصة إرادتهم على الحاكم ؟ ... هكذا يبرر – لنفسه المنقسمة – خسة الوسيلة بنبل الغاية .

لقد بدأ بحسنية التى يجتذبه سحرها . أما خاله ، فلا حاجة عاجلة إلى إضاعة الوقت الثمين معه ، وليس بيت الغوازى بعيداً . إنه قائم بطابقيه على شاطئ النيل ، حيث يتركز نشاط البلدة فى شارع واحد طويل ، أقصاه شمالا معمل السكر بمدخنته الضخمة المرتفعة ، وأقصاه جنوباً ضريح الشيخ إبراهيم ذو القبة الصغيرة البيضاء . ألا تنقضى حياة الناس هنا بين هذا القطب المادى الكبير وذلك القطب الروحى المتواضع ؟

لايتطلع «سلطان أفندى» إلى البنات اللواتى يحملن « البلاليص » ليملأنها من النهر . ولا يلتفت إلى هاتين المرأتين الواقفتين على باب الدار سافرتين ، فى ثوبين زاهيين ، وقد التصق برأس إحداهما سعر قصير تلمع عليه طبقة من معجون دهنى ، بينما اصطبغ شعر الأخرى بلون الحناء . إنه يدخل بخطى الواثق من قطف ثمرة يعرفها ، ثمرة ناضجة أصبحت دانية . وتقضى الحلاوة التى يتمثلها فى تلك الفاكهة المنشودة على مابقى من تردده . بل توقد فيه الغريزة – وهو يتقدم نحو حسنية – شعلة من الذكاء ، فيخاطبها بمنطق الساعة ، ويضرب على أوتارها الحساسة .

مرحى ! لقد تجاوبت معه أخيراً . تجاوب طموحها مع طموحه . إنه طموح

الأذلاء الذين يريدون أن يثأروا لكرامتهم الممتهنة ، ولكن بعد أن اهتز مفهوم الكرامة عندهم خلال الجو الفاسد المخيم عليهم . هذه امرأة فقيرة المنبت ، تفتّق صباها البائس عن فتاة كاعب خالية الحسن ، فازدهاها جمالها ، وخيل إليها أنها بمفاتنها تستطيع أن تغير مصيرها ، أن تفلت من قبضة الحرمان ، وأن تصل إلى أنعم العيش وأبهجه . وذلك ما قادها إلى احتراف الرقص والغناء على يد « الست بنبة » التى أكدت لها – لكى تضمها إلى فرقتها – أن الظهور فى بيت الغوازى هو أقصر سبيل إلى اصطياد « أجعص » الأعيان . غير أنها منذ سنوات تدور فى حلقة مفرغة . الأعيان الذين يتهافتون عليها وقد ينفحونها بمال كثير يحجمون عن الاقتران بها شرعاً ، لئلا يفقدوا مكانتهم الاجتماعية . وقد ضاقت ذرعاً بالوعود التى أغدقها عليها نفر من عظماء الإقليم دون أن ينجز بعضها واحد منهم . لم يعد الآن فى قلبها إلا الحقد عليهم . وبلغ سخطها ذروته حينما أتاها نبأ زواج « باقور » بالفلاحة « زنوبة » . والحق أنها كانت ساذجة غريرة ، تتابع حلمها الخاص وتنسى حقيقة وضعها ، يوم تخيلت أن الشيخ باقور الحنفى أصبح متيمًا بها .

ومهما يكن من تطلعها إلى باقور ، فمن باب هذا التناقض يتسلل «سلطان أفندى» إلى قلبها . يشرح لها أن « باقور » قد خدعها ، فقد كان يضمر الاقتران بفلاحة ، لكى يوثق عرى التحالف الذى نشأ بين البدو والفلاحين ضد الخديوى– عدوهم المشترك . ويحاول أن يحتل هو مكان باقور الشاغر ، بالمبالغة فى التفاخر والاستعلاء . ألم يكن أمامها موضع احترام المأمور ؟ أليس « دائما » مع المدير فى ديوانه بالمنيا ؟ .... « خورشيد باشا » الذى أرسل

الخديوى إليه رسولا شخصياً ! إنه هو « سلطان » – وفى اسمه وعد من القدر بالسيادة والمجد – هو الذى تلجأ إليه الحكومة فى أخطر الأمور . ولقد أصبح فى يده مصير « باقور » نفسه ! أجل ، إن هذا الفتى أقوى من الرجل الذى تفتقده وما أروعه إذ ينتقم لها منه !

بهذا كله راود سلطان أفندى « حسنية » ، فباتت خليلته منذ تلك الليلة . لقد كانت بالأمس غايته ، وها هى ذى الآن وسيلته إلى غايات أبعد إنه لايحبها ، بل يشفى نفسه منها ، ويستغلها . والحب إيثار وإعزاز وتضحية ، أما « سلطان أفندى » فلا يضحى بشىء من أجل « حسنية » . يؤجل – وهو فى الواقع يرفض – أن تقيم معه فى المنيا ، ولو فى منزل تشتريه فوراً بمالها . ويلح فى إقناعها بالبقاء حيث هى لأن وجودها فى الروضة لازم للتجسس على « باقور » . ترضى « حسنية » فى سذاجة وثقة . وتعجلا لما تصبو إليه من الاستقرار مع « سلطان » ، تبذل كل مافى وسعها لإرشاده إلى « باقور » والغيرة تصور لها « باقور » مستلقياً فى أحضان « زنوبة » ، فما على « سلطان أفندى » إلا أن يهاجم « العزبة الغربية » بقوة عظيمة من الشرطة أو من الجيش ! هى تعتقد – كما ألقى فى روعها – أنه يملك هذا النفوذ . ولكنها تحذره من تعريض حياته للخطر ، إذ أن « داود » – سيد العزبة – رجل محبوب جداً بين الفلاحين . ويقال إنه يوزع عليهم الملح بلا مقابل ، نكاية فى الحكومة التى فرضت على الملح ضريبة جديدة .

– و« داود بيجيب » الملح منين ؟ .

- أنا عارفة ؟

– ده ممنوع على الأهالى يتاجروا فيه الحكومة محتكراه فى الشئون . علشان كل اللى يستهلك ملح يكع الضريبة . والا الخديوى يدفع ديونه لأوربا ازاى ؟

– وأنا اللى ح أقول لك ع الخديوى ؟ ابقى اسأله أنت لما تشوفه . . .

– [بتهريج] ماشى كلامك ! . . [حالما] وماله ؟ . . بكره أسأله . بكره أشوفه !

– فى سراية عابدين يا « سلطان أفندى » ؟

– فى سراية عابدين ! . . وسلطان أفندى دى . . وحياة خدودك [يداعبها] لتبقى بكره « سلطان باشا » !

١٠ – الوطنية لماذا ؟

ينفرد « سلطان » بخاله « الشيخ فتح الله » وفى حديث عائلى ذى شجون ، تفيض نقمتهما على مظالم الخديوى ورجاله . يذكر « فتح الله » أطرافا من شقائه وشقاء الفلاحين . ويذكر « سلطان » أمثلة من استهتار « الدائرة السنية » بحقوقه وحقوق الأهالى . لقد استفحل طغيان الحاكمين على جميع المستويات . لم تبق وقاحتهم حرمة لبنى آدم . وتتفجر حماسة « سلطان » فيقسم أن ينضم بكل طاقات وظيفته واتصالاته « العليا » إلى حركة المقاومة السرية التى يقودها خاله . ويقتنع الشيخ بصدق عزيمة الفتى يغتبط ، ويسأل له البركة .

ولا عجب أن يُذْكى محضر « الشيخ فتح الله » فى نفس « سلطان » المتقلبة عواطف الوطنية . لعلها وطنية خالصة ، كما تلوح فى الانفعالات التى تجتاحه فى أثناء تلك اللحظات الوهاجة . ولكن حرارة عاطفته إنما تنبعث من نار آكلة حقد دفين يكتمه هذا الموظف الصغير على عجزه المادى والمعنوى ، فيضرم فى أعماقه رغبة الثأر ويؤججها إنها وطنية أنانية فردية نفعية ، تريد أن تتنكر فى ثوب الزعامة الفضفاض . وطنية تختلف على كل حال فى جوهرها عن إخلاص شيخ

البلد الذى عاش حرًّا من قيود الدواوين ، ولم يتعود خسة التزلف للرؤسا « الشيخ فتح الله » يعتز فى زراعة الأرض باستقلاله ، وإن كان محدودا ، يتصدى للمسئوليات بعزيمة ، ويتفانى فى خدمة الجماعة .

ودون أن يبدى « سلطان » إلحاحا مريبا فى استجواب خاله ، يقتنص ببراعة مما يفضى به الشيخ المطمئن إليه أقوالا تدل على أن « باقور الحنى » يتردد فعلا على الروضة ، وأن علاقة «باقور» بـ« داود » – الذى تجاور عزبته خيام البدو غربا قد توثقت تدريجيًّا . تطورت من المشاركة فى الزراعة وفى التجارة ، إلى تبادل الخيل العربية التى يهواها كل منهما ، إلى الثناء على « زنوبة » – وكان الضيف يلمحها أحيانا خلال زياراته المتكررة لاستعراض الخيل أو مراجعة الحسابات ثم إلى طلب يدها من أخيها .

« حسنية » إذن على حق ! بتأكد « سلطان » من صحة النبأ . نعم ، لقد كتب شيخ العرب الأصيل كتابه على الفلاحة الأصيلة . والبدو والفلاحون على السواء مستبشرون بهذه الرابطة التى ترمز إلى توحيد مصالحهم ، وتجديد سعيهم للإطاحة بالخديوى .

هنا يرجو « سلطان » خاله أن يصحبه إلى العزبة الغربية لكى « يبارك » « لداود » فهو لا يعرفه معرفة خاصة ، ويود أن يوطد علاقته به . ويخترق الرجلان الحقول . وللأسف لم يجد « داود » فى الدار . فلم يدخلا من بوابة العزبة الخشبية الضخمة ، التى تحليها رؤوس مسامير نحاسية غليظة .

وأمام البوابة ، ودع « سلطان أفندى » خاله وتظاهر بالانصراف . ولكنه لم يرجع على بغلته إلى المنيا إلا بعد أن دار وحده دورة بطيئة كاملة حول سور

العزبة . كان يحاول أن يرى – بأذنيه وعينيه – ما يجرى فى داخلها .

وبمجرد وصوله إلى المنيا ، جمع « البصاصين » الثلاثة . وكلفهم بالمرابطة فى الروضة حول « العزبة الغربية » لملاحظة أهلها ، ومراقبة حركاتهم ومعرفة شخصيات الغرباء الذين يترددون عليهم

١١ – داود

صباح اليوم التالى ، فى المنيا .

« سلطان افندى » فوق بغلته ، على ضفة النيل المشمسة ، يبدو مسرعاً إلى غاية معينة . فجأة يتوسم فى الفارس الذى يمتطى ذلك الجواد العربى الرشيق السائر أمامه شخص « داود » . يركض بالبغلة نحوه هاشاً باشاً ، ويهم بأن « يبارك له » على مصاهرة شيخ العرب ... ولكنه يمتنع فى آخر لحظة ، ويفضل الظهور بمظهر الموظف الخطير إزاء فلاح محتاج مهما بلغ ثراؤه – إلى حسن رعاية رجال الحكومة . ويتجنب ذكر « باقور » لئلا يتشكك « داود » فى أمره فيبالغ فى التحفظ .

يتبادلان تحيات جافة ، ثم يقول « سلطان » .

– دانا بادوّر عليك من رمان يا « سى داود » ورحت لك عشية مخصوص لغاية العزبة .

– أهلا وسهلا .ويبدو القلق على « داود » فيردف « سلطان » .

–كنت مع خالى « فتح لله »

عندئذ تنفرج أسارير « داود » ، ويعلو صوته .

– أنا خدمة « الشيخ فتح لله » .

– العفو ! بس الموضوع اللى قاصدك فيه ـ تخليه بينى وبينك بلاش نجيب سيرته لحالى ... وبلاش نتكلم فيه هنا جنب العمار ....

– خير ان شاء الله .

يقولها « داود » وقد عاد القلق إلى وجهه . ويحثان مطيتيهما للابتعاد عن المدينة . تنطوى وراءهما حقول شاسعة . ثم يشير « سلطان » فيترجّلان قرب ساقيه مهجورة .

يبدأ الأفندى هجومه فى رفق . يتعمد لهجة الحذر والتستر وهو يعرض على « داود » – بعد التلميح إلى مهارته فى تهريب الملح – أن يعاونه « داود » فى تهريب كمية من الحشيش . فيصيح الفلاح مستنكرًا :

– حشيش ؟ حد الله ! أنا ما ليش فى الحرام !

– [فى تقريع أشبه بالتهديد] يعنى مش حرام تشد الملح من ورا الحكومة يا « سى داود » ؟ .

– هو فيه أشرف من الملح ؟ دا العيش والملح نعمة ربنا الله يديمها علينا وعليك !

– إنما مش سرقة ؟

– لا حول الله ! صحيح ياعالم بقينا عايشين سرقة ! لكن سرقتنا احنا حلال . أنا باخد حقى . الحكومة واكلانا . ناهبانا . الغلة يا « سلطان أفندى » بادخلها بالدس ، من غير ما حد يحس ! علشان إيه ؟ دى شقايا وشقا

الرجالة.. على كل حال أنا ضميرى مرتاح وعصيان الظَّلَمة دول ثواب عند الله !

– برضه أمر الحكومة ينطاع . وأنا عبد السلطان !

– لا ! ماتقولش عبد السلطان . . لما اسمك أنت « سلطان » خليك بقى سلطان نفسك !

– [يغضب] سلطان نفسى وسلطان غيرى كمان ! أنا كنت باعمل معروف : كان غرضى أنبِّهك قبل ما يوصل الكلام للباشا المدير .

– [يرثى له] خالك مايرضاش بالخيانة أبدا . دا راجل كله شهامة . وعلى رأى المثل : « إن صح الواد يخول » !

فيقول « سلطان » ، وكأنه يعتذر :

– خالى مالوش شغل بالحكومة .

– عاوز الحُرّ اللى زيه يحط إيده فى إيد الحكومة ؟

وينطلق « داود » منددا بالجشع الرسمى المستشرى ، معددا نكبات الفلاح الذى يراد الآن حرمانه حتى من الملح . . فيتراجع « سلطان » ويغير لهجته ، متعمدا أن يمالىء « داود » ليكتسب ثقته ، بعد أن ألقى فى روعه – بما فيه الكفاية – أنه قادر على إيذائه .

– أنا معاك . ح تقول لى يا « سى داود » ؟ أنا أدرى بالمظالم فى الدايرة السنية . .

– وليه تشتغل فى الدايرة ، وتنفذ المظالم فى خلق الله ؟

– أكل عيش !

- يعنى مافيش أكل عيش أشرف ؟ العمر واحد والرب واحد . واللى يرزقنا

بيه نحمده عليه .

– ونسيبها لمين ؟ لو جيت معاك ، رح ياخد مطرحى واحد تركى لا يفهم ولا يرحم . أمال احنا أهو بنحاول نراضى الطرفين .

– لوكنت منك كنت قلبتها عليهم .

– ومين قال لك إنى مش ناوى ؟ صنّ بس لما نتمكن .

– ولغاية ما نتمكن ، نفضل ساكتين ؟

– العملية واحدة . خليك انت مع خالى فى الفلاحين ، وخلينى أنا فى الدايرة . علشان نعرف نوضب الشغل مع بعض بره وجوّه ، ونطربقها على المفترى بقدرة قادر !

– برضه كلام معقول . . .

– إيدك على كده ! [ويمد يده لداود] .

– [يشد على يده] عهد مين ؟

– عهد الله ! . . والله لنخرب بيتك ياللى خربت البلاد !

– ربك كريم !

– أفوت عليك بكره العصر فى العزبة ؟

– مرحبا بك .

– ما تآخذنيش ، أصلى مستعجل . الباشا المدير فى انتظارى . .

– . . مع السلامة .

وينظر « داود » وهو على صهوة جواده الكريم إلى بغلة « سلطان أفندى » المهرولة وسط التراب . ويستغرق فى تأمل تشوبه الحيرة .

١٢ - تضامن بالإكراه

ينفق « سلطان » معظم أيامه ولياليه فى الروضة . يتنقل هناك من أحضان « حسنية » التى توهج نيران غروره وأطماعه ، إلى « العزبة الغربية » التى يفضل أن يتردد عليها الآن دون صحبة خاله . أما مأمور الروضة ومدير المنيا ، فلا يزورهما إلا لماما . لقد أقنعهما بأن هذا أجْدَى لأبحاثه ، إذ لا بد من التغلغل فى حركة المقاومة السرية ، بل والظهور بأنه من أبطالها ، حتى تنكشف له جميع خطوطها ، ويندمج فى قيادتها العليا ، وينفذ إلى مقر « باقور » .

و « باقور » لغز مستغلق . يقال إنه مازال غائبا عن عروسه الفلاحة ، لتصريف أمور عاجلة استدعت رجوعه إلى منطقة القيروان . ومن يدرى لعله يؤلف هناك جيشا ينقضّ به بين يوم وآخر على الخديوى ، مع هؤلاء الفلاحين الساخطين .

ومن خطوة إلى خطوة ، يزداد استقلال « سلطان » عن الجميع . وينضج تفكيره الذى يزين له أن يستغل الظروف كلها لمنفعته أولا .

ذات مساء ، يحس أن « داود » قد أنس إليه فينتبذ به ركنا بعيدا عن رجال

العزبة ، ويفاتحه :

– أما النهارده ، ماتقوليش كانى ولا مانى ! أنا استوليت على عشرين زنبيل بالفهلوة ! كانت رايحة مصر. أصحابها لحونى نازل مع تلاتة غفر ، اتهيأ لهم أنها كبسة. تركوا البضاعة ونفدوا بجلدهم . . شوف الصدف !

وبرغم إباء « داود » وتحرجه ، يلح عليه « سلطان » يرجوه ألا يفعل أكثر من أن يحفظ له هذه « اللقية » فى مخزن الملح السرى مدة ليلتين فقط ، ولا يقبل « داود » أداء هذه « الخدمة » إلا إنقاذا « لسلطان أفندى » من عواقب وخيمة رغم أنها لاشك لاحقة به – وهو الموظف الرسمى – لو ظلت هذه المخدرات فى حوزته .

كانت تلك الواقعة بداية انتصار « سلطان » على « داود » . لقد زج به فى تهريب الحشيش . لا ليجعل منه كبش الفداء فحسب – إذا دهم الخطر – بل ليشاطره أخفى ما يكتم من أنباء . . أنباء تآمر باقور الحنفى على الخديوى .

١٣ – الخديوى يساوم

لكى يستأثر « سلطان أفندى » بفضل اعتقال « باقور » ، قرر أن يضلل المأمور والمدير ، وأن يحتفظ فى يديه وحده بالخيوط التى يجمعها من مختلف المصادر ، ولم يطل تحفزه حتى وثب وثبته الكبرى .

ها هو ذا يوهم المدير بأنه سيقوم فى الصحراء برحلة استكشافية لمدة أسبوع تقريبا –يأتيه بعدها بالخبر اليقين . فيأذن له المدير بالتغيب عن عمله . غير أنه يزعم « لداود » أنه سيقضى الأسبوع فى القاهرة لإنجاز صفقة دقيقة مع بعض كبار المهربين الذين وصلوا من بيروت . والحق أنه يرحل إلى القاهرة فعلا ، ولكن – كما تعلم حسنية فقط – ليقابل « الخديوى اسماعيل » . .

وكان « إسماعيل باشا » – مع استهتاره بكرامة المصريين – يحرص على تسمّع أدنى الشائعات التى تسرى بينهم مما يتصل بالأمن العام . كان يخشى انفجار سخط الشعب ، ويتوقع مؤامرة لاغتياله فى أية لحظة . ألم تتكرر محاولات الاعتداء عليه فى الشهور الأخيرة ؟ لذلك قرأ باهتمام هذا الخطاب القصير الذى قدمه «سلطان أفندى» لرئيس التشريفات فى القصر ملتمسا

مقابلة الجناب العالى لمشافهته شخصياً فى موضوع « الشيخ باقور الحنفى » . ويأمر الخديوى بإدخال موظف « الدائرة السنية » عليه فورا .

بلا مقدمات ، يسأل الخديوى متعجرفاً :

— وإنت تقدر تعمل إيه ؟

وتجرى فى الحال بين الرجلين مساومة حادة ، قاطعة ، دنيئة . خلاصتها أن يتعهد « سلطان أفندى » بتسليم « باقور الحنفى » حيًّا للخديوى نظير الإنعام عليه بلقب الباشوية وبمبلغ عشرين ألف جنيه . وما أتفه هذا الثمن الذى يبذله إسماعيل للنجاة من خطر محقق ! إلا أن «سلطان أفندى» يشترط — بإلحاح — عدم ذكر اسمه إطلاقاً . فيوافقه الخديوى وهو يفرض عليه شرطا موازيا :

— لمدة شهر وبس ! وبعد شهر واحد ، إن ماسلمتنيش باقور الحنفى هنا ، ح نفضحك فى الدنيا وماحدش يبقى يحميك من « باقور » اللى ما قدرتش عليه ! إعرف شغلك . .

— طيب . . .

— مع السلامة !

كان لقاء كالبرق فى خَطْفه ، وسطوعه الباهر ، وهزة الخوف التى تحدثها شرارة مفاجئة حاسمة تمزق الجو تمزيقا .

ويخرج « سلطان أفندى » من قصر عابدين وهو يتصبب عرقا . ترى هل أصابته الحمى ؟ إنه ملتهب الرأس ، نهب المشاعر متناقضة تجتاحه . تارة يبتسم مغتبطا مزهوًّا ، وتارة يكشر عن نواجذه غاضبا محنقا . أيعامله الخديوى معاملة صعلوك ؟ أيهدده بإفشاء سره وتسليمه هو إلى « باقور » ؟ أهكذا يكافىء

إسماعيل الغادر موظفا عنده أراد أن ينقذ حياته ؟ ولكن لا سبيل الآن إلى التراجع . . إنما « إسماعيل » هو الذى يدفعنا إلى ارتكاب ما نكره . هو الذى يورطنا فى الخيانة . وهو أكبر خائن فى مصر كلها ! لا بأس ، سأضحى « بباقور » لكى أتمكن منك فى المستقبل القريب أيها النذل المفترى . لقد عرفتك الآن ، ولن تخدعنى بعد ذلك . .

غير أنه عندما وصل إلى المنيا ، كان قد طوى فى نفسه هذا الحقد الجديد . ولم يلاحظ خلطاؤه عليه إلا مزيدا من الاعتداد بالنفس والتكبر .

ومضى مسرعا إلى « حسنية » فى الروضة » وهو يتخايل فى حلة قشيبة . وبادرها مقهقها :

– باركى « لسلطان باشا » !

١٤ – صمت الفرسان

جرت عادة « داود » أن يستقبل فى يوم الجمعة من كل أسبوع أولئك الذين يتعامل معهم من غير أهل الروضة . إنهم يأتون من بعيد ، بنيَّة انتهاز الفرصة لقضاء حاجاتهم أيضا صبيحة اليوم التالى إذ ينعقد « السوق الكبير » . وهم يتوافدون دائما على « العزبة » فى ساعات النهار الأخيرة .

وقد أطال « سلطان » سهرة هذا الخميس حتى فجر الجمعة مع « حسنية » فى بيت الغوازى . وعند الشروق خرج لمفاجأة العزبة بزيارة استطلاعية . امتطى حصانه – أجل ، فلقد باع البغلة التى لم تعد تليق بمقامه ، واقتنى فرسا فاخرة يتبختر بها بين الناس . وما هى إلا دقائق حتى ترجّل أمام بوابة العزبة الضخمة . وإذا به يسمع من قلب الفناء صهيل جياد تهللت بلا شك لاقتراب فرسه . ولكن البواب– وكأنه هوجم على غرة– يبادر إلى إيصاد المصراع الموارب ، ويقود الأفندى و « ركوبته » نحو مدخل السلاملك . وفى السلاملك كان « داود » يتناول القهوة ويدخن ومعه نفر من البدو ، لا يكاد « سلطان » يعرفهم .

صافح « سلطان » داود » فوقف الرجال فى احترام يصافحون بالمثل هذا الضيف الطارئ . كان التكلف واضحا فى عبارات التحية المتبادلة وجلسوا ، فعقد الارتباك الألسنة . وأراد رب الدار أن يقطع الصمت ، فلم يسعفه الكلام إلا بحديث مبتذل عن فيضان النيل ، وعن سوق الغد ، ولم يلبث الأعراب أن نهضوا ، وسلموا ، وانصرفوا على جيادهم .

ولكن بضع كلمات ألقاها بصوت « أخنف » خفيض أحد هؤلاء البدو — وهو أكبرهم سناً — فى لحظة انطلاقه خارج بوابة العزبة ، طرقت سمع « سلطان » فأثارت فضوله :

« لا . خلى الحصان هنا . اربطوه ورا من الحوش ماحد يشوفه لأنه لابد يحتاج له أول ما يقوم بالسلامة . »

لم يظهر « سلطان » وهو يعبث بحبات مسبحته الوردية ، أنه سمع أو فهم شيئا . وظل « داود » جامدا . ولماذا يتطوع بالشرح ، إذا كان « الأفندى » لم يدرك معنى ما قيل ؟ وعلى فرض أنه قد فطن إلى الأمر ، فهل ينبغى أن يحذر رجل من شريكه الذى يشاطره مخاطر التهريب ، ومن حليفه ضد « الحكومة » ؟ « سلطان »هو الذى تكلم بعد وهلة . تكلم عن صفقاتهما . فأيقن « داود » أنه فتى كريم — كخاله — تعمَّد أن يشير بذلك إلى وحدة أسرارهما وكأنه يتعهد بالكتمان . ولم يَطُل تداولها ، فقد تعلل « سلطان » بأنه على موعد سابق مع خاله فى الروضة . وركب فرسه .

ولكنه اتجه صوب المنيا .

١٥ – العلاج

كان أهم ما يعنيه هو أن يصدر تعليمات عاجلة لجواسيسه الثلاثة . وقرب المنيا ، وهو يركض شمالا فى ظل شجر الكافور الممتد على ضفة النيل ، رأى الفلاح العجوز « سليمان » – أحد فلاحى عزبة « داود » – مقبلا فى الاتجاه العكسى على ظهر حمار مرهق ، يبدو أنه عائد إلى العزبة بعد أن قضى فى المدينة مهمة خاصة . يقف « سلطان » بفرسه ليستجوبه على مهل . ولكن الفلاح لا يكاد يبصر الأفندى حتى يحث حماره ليتجاوزه .

– يعنى بتنخس الحمار قوى ياعم « سلمان » ! حيلك عليه دا واسق ! إيه دا كله اللى فى الخرج ؟ – وَلّا خُرْج اللى رايح يحّج !

– أبدا . دول يادوب شوية دويان جايبهم من المنيا . . .مطلوبين . . لستّى « زنوبة » . . .

– سلامتها . عندها إيه ؟

– مسكينة ! عشية اترحلقت بعيد عنك ورجلها انجزعت .

وتبرق الخواطر فى ذهن « سلطان » . غير صحيح ما يقوله ذلك الفلاح

الوفى ، الذى واصل ركضه دون لأْى . . أجل ، فقد لمح « زنوبة » هذا الصباح وهى تسير فى فناء العزبة بخطوات رشيقة كالغزال . . لابد أن المصاب شخص آخر ، وأن هذا الشخص الآخر هو الذى تكلم عنه الشيخ البدوى « الأحنف » عند رحيله ، وأوصى بالتستر على جواده ريثما يتم شفاؤه .. لابد أنه بدوى مثله ، وبدوى يحاول التخفى ، وبدوى خطير الشأن من أجله يتخذ القوم احتياطات غير عادية . . ومَنْ عساه أن يكون — هذا البدوى الخطير المستخفى لدى « زنوبة » — سوى « باقور الحنفى » ؟

صعد الدرج العريض ، واستدعى فى ديوانه البصاصين الثلاثة ، لم ينبئوه بجديد ، اللهم إلا شهبندر الذى روى واقعة قدوم سلمان إلى صيدلية المدينة ، حيث طلب من العقاقير مايلزم لعلاج « جزع شديد » أصاب قدم خيّال سقطت به فرسه ليلاً فى حفرة ساقية مهجورة .

سلطان : وعارف الخيال ده موجود فين ؟

شهبندر : فى عزبة « داود » يا أفندم .

وبدا « سلطان » ساهما . كان يناقش نفسه أكثر مما يناقش الرجال الثلاثة الواقفين أمامه :

لو عُدْت اليوم مرة ثانية إلى العزبة ، لأثرت ريبة أهلها فى نواياى . الأفضل ألا ألفت الأنظار نحوى بأى تصرف أهوج . ولكنهم قد ينقلون « باقور » إلى مكان آخر أجهله إذا أطلت الانتظار . لحسن الحظ أن « باقور » جريح وقد لا يقوى على الحركة قبل يومين . إنى كفيل — فى بحر هذين اليومين — بإبعاد « داود » نفسه عن العزبة حتى يخلو لى الجو . . . مرحى !

ويمسك بالقلم ، ويكتب على ورقة بيضاء :

« أخى العزيز « داود »

سلامًا قلبيًا وبعد ، كنت أود أن آتى إليك بنفسى لأبلغك مافى هذه الرسالة . ولكن الأمر عاجل جدًا ، ووجودى فى المديرية أهم وأضمن لنجاح الخطة السرية التالية :

غدا ، فى الفجر ، ستقوم بأمر المدير دهبية من المنيا محملة بالغلال إلى المحروسة . ضع بضاعتنا فى « شوالين » يشبهان تمامًا « أشولة » القمح المشحونة . وأحضرهما بشخصك مع الاستعداد لتركب معها الدهبية التى ستنزلك بكل أمان فى بولاق دون أن يتعرض لك أحد . ولإعفاء البضاعة من أى تفتيش ، سأعطيك توصيات كتابية لجميع المسئولين عندما أقابلك فى الساعة الخامسة من صباح الغد فى موردة المنيا لأودعك بالسلامة . . ودمت لأخيك .

المخلص

سلطان

سلم شهبندر هذه الرسالة « لداود » فى سلاملك العزبة استولت الحيرة على « داود » هَمّ بأن يرد على « سلطان » رافضا ذلك التخطيط الذى يضطره إلى التغيب فى ظروف قد تستلزم بقاءه بالقرب من الدار . ولكن الأفكار المتدفقة فى ذهنه لم تلبث أن أمسكت يده عن الكتابة بعد أن خط سطرين . وعادت عيناه إلى قراءة الرسالة . أليست هذه فرصة ثمينة ؟ هل يضمن أن يسنح له مثلها فيما بعد ، لسوف يقضى « المشوار » على جناح السرعة بفضل الترتيبات التى أجاد « سلطان أفندى » اتخاذها مع « الحكومة » . يخامره الاقتناع ، فيصرف

شهبندر . ويستعد للرحيل ، فى تكتم شديد .

وعند طلوع الفجر، يجد «داود» شريكه فى انتظاره. لا على البر ليخلو به لحظة ، بل فى داخل السفينة ، يتلقفه « سلطان » فى لهفة ويقدمه « للريس » ورجاله . ويعطيه خطابين مغلقين وهو يودعه وداعا حاراً .

وتتحرك السفينة .

هو ذا صاحب العزبة يبتعد عنها لمدة أسبوعين أو عشرة أيام على الأقل .

١٦ - فحيح تحت المشربية

فى ضحى اليوم نفسه ، وقد انتشر الفلاحون فى الحقول واستغرقهم الكدح تحت شمس حامية ، دلف « سلطان أفندى » من بوابة العزبة . صادف فى الفناء خادما عجوزاً ، فسألها أن تخطر سيدتها « زنوبة » بأنه يريد أن يخاطبها فوراً فى مسألة تهمها .

وعندما لاحت وراء المشربية القديمة التى تحجب طنف الصندرة رأس « زنوبة » وكأنها تطل من خمار خشبى دقيق ، تشكلت فى ذلك الإطار الأصيل صورة أنيقة جذابة . لكن « سلطان » أفندى » كان متوتر الأعصاب ، شارد النظرات ، لا يرى هذا الجمال ولا يرق له .

– قربى ودنك شوية .

– [بجفاء] أنا سامعاك كويس كده . الخبر إيه ؟ دانا رجلى وجعانى وواقفة عليها بالغصب .

– [ساخرا] رجلك وجعاكى ؟ بعد الشر ! من إيه ياترى ؟

– عثرت وأنا طالعة السلم . . قول بسرعة وخلصنى !

– الرجل اللى موجوعه فى العزبة دى مش رجلك يا اختى. إنما عفارم عليكى ، انتى عاوزة تبعدى الكلام عن « الشيخ باقور » . لكن مافيش داعى تكذبى علىّ أنا . هو أنا غريب ياست « زنوبة » ؟ . . . « داود » أخويا مايخبيش عنى حاجة أبدا . . بأمارة ما « الشيخ باقور » وقع به الحصان فى الساقية من ليلتين .

– إنت غرضك إيه ؟

– غرضى سلامة « الشيخ باقور » ، وسلامة « داود » ، وسلامتك ! وأنا لولا العيش والملح ، ومعزتكم عندى واحد واحد ، ماكنتش والله اتحركت من المنيا . بقى الموضوع جد ، اسمعى . المأمور عرف طريق الملح اللى مخزنه « داود » . وبلغه علم بأن « الشيخ باقور الحنفى » اللى بيدور عليه الخديوى ذات نفسه من سنين – مستخبى النهاردة فى عزبتكم . . .

[فقاطعته الفلاحة الأبيّة ، برباطة جأش لم يكن يتوقعها] :

– إيه الحدوتة اللى بتحكيها دى ؟ على أى حال كتر خيرك ، تعبت نفسك وجيت لغاية هنا . ده كل اللى عندك يا «سلطان أفندى » ؟

– أنا عاوز أخدم .

– طب اركب فرستك والحق « داود » وقول له ! ده حتى من مصلحتك : ما انتاش مشاركه فى الملح وغير الملح ؟

ولكن « سلطان » استأنف هجومه ، متوخيا الضرب على أوتار المرأة الحساسة . قال وهو يتصنع رنة أسى فى صوته :

– مادام كده ، أنا ح اسكت. مش ح اقول بم للمدير لما يشد النهارده

تلغراف لمصر علشان يحبسوا أخوكى ساعة ما يوصل بولاق . يرضيكى خراب البيوت ؟ وأنا باكى عليكم ياعينى وبدى أمنع الأذية .. الناس لبعضها . واللى يعمل خير يلاقيه . إن كنتى أنتى تفرطى فى « الشيخ باقور » ، أنا ما افرطش فيه واصل : ده شريك خالى ، ومقامه عندى مقام خالى . والا يعجبك ظباط الحكومة يجرجروه قدامك ويضربوه بالرصاص ؟ . . الله يسامحك !

هنا تنهار مقاومة «زنوبة» . ويدفعها الجزع إلى الاعتراف والاستصراخ :

– أمان أمان ! فى عرضك يا « سلطان أفندى » ! أيوه « الشيخ باقور » . . « الشيخ باقور » فى رقبتنا . رجله مكسورة ياضناى وباخدم عليه . . ونروح فين دلوقت ؟ حوش عنا الحكومة يا « سلطان أفندى » – الله يخليك ! « الشيخ باقور » فى عرضك ، وأنا فى عرضك ، و « داود فى عرضك ! قول لى أعمل إيه ؟

أجاب فى فيض من النخوة الزائفة ، وعيناه تلتمعان :

– شدى حيلك يا اختى ! سليمة العواقب إن شاء الله لو اتحركنا بدرى . البركة فيكى هنا . وأنا برضه زى « داود » عليكى تخبّرى « الشيخ باقور » بالموضوع . دلوقت على طول . بس أوعى ييجى اسمى على لسانك ! وأنا مستعد أوضبْ كل شيء مع المدير وغير المدير ، إنما احلفى لى فى الأول ماحدش يدرى باسمى !

– والله العظيم ماحد يدرى باسمك !

– شوفى : أنا رايح أعطل كبسة المأمور لغاية بكره . ومن هنا لبكره الصبح ، رجالة العزبة يكونوا فرغوا المخزن ونقلوا الملح فى أى نقب ، فى أى

غيظ . أنا عارف مافيش فى المخزن غير الملح ، بسيطة ! أما « الشيخ باقور » ، فأنا هابعت له تلات خيالة من عندى ، ياخدوه بالراحة فى نص الليل ، ويوصلوه فى أمان الله لبيت خالى فى عزبة «المحرص» [يتكلف التلفت حوله بحذر] علشان ما حدش يعرف له سكة ، لغاية ما يخلص التفتيش هنا ، ونرجعوه لك تانى والا تالت يوم بنفس الطريقة . إيه رأيك ؟

تتنفس « زنوبة » الصعداء :

– تسلم حياتك ! الله يحفظ شبابك ! ويقدرنا على رد جميلك ! بس ربنا يهدى « الشيخ باقور » ويقبل . أصله بوسواس ، ورأسه ناشفة . . .

– لازم يقبل ! ويفهم إن النجدة دى مدبرها « داود » . المهم إن اسمى أنا مايخطرلوش على بال . والا الراجل ح يفتكر ان الخديوى ناصب له كمين على يد بتوع الدائرة السنية !

– كلامك فى محله .

لقد ارتفع فى نظرها الآن وفاء هذا الصديق المتفانى ، الذى يبذل الخير وينكر ذاته . وبلغ من امتنانها أنها لو استطاعت أن تقبل يد « سلطان أفندى » من خلال المشربية لفعلت .

ولم يكد الثعبان يحييها ويستدير منصرفا – وهو يتظاهر بالإسراع – حتى عاد على أعقابه ليضيف بصوت خفيض كالفحيح :

– أنا كنت ح أنسى أهم حاجة . . ما اتفقناش يا اختى على إشارة . رجالتى اللى ح يوصلوا هنا الساعة اتناشر بالظبط ، يعرفوا ازاى إن « الشيخ باقور » مستعد ؟ العملية خطيرة ، وإذا حد عتر بيهم رحنا كلنا فى الحديد . خلى

باللك : « الشيخ باقور » مايظهرش من الباب إلا على إشارة . ومايكونش أى حد معاه ، أبدا . الحيطان لها ودان ، والشجر له ودان !

– الله ينوّر عليك . والإشارة إيه ؟

سكت « سلطان » لحظة كأنما ليبحث فى أعماق ذهنه عن فكرة . ثم طرق فجأة جبهته بكفه وقال :

– آه ! أول ما يوافقك « الشيخ باقور » انشرى على شباك السلاملك البرانى بشكير أبيض بحيث يبان للى جاى من بحرى إنما ما يخرجشى الشيخ من البوابة إلا لما تسمعى انتى بودنك تلات خبطات ورا بعض على نفس الشباك ، بالشكل ده [ينقر على خشب المشربية ثلاث نقرات] سامعة ؟

– أيوه .

– وبعدها الرجالة يقولوا كلمة السر.

– وهى إيه كلمة السر؟

– ح اخليهم يقولوا : « منصور مش مكسور » .

– إن شالله يارب !

١٧ - إيثار

لم يكن من اليسير - كما توقع « سلطان » أن تقنع « زنوبة » « الشيخ باقور » بتنفيذ خطة لم يشترك هو فى تدبيرها .

أما العروس الشابة فقد استبسلت أولا فى إقناع نفسها بالأمر الواقع . عزيز عليها حقًّا أن تفارق رجلها ، وأن تفارقه وهو فى هذه الحال . ولكنها تقهر عواطفها ، وتصور له - فى إيمان القلب المحب - أنه عائد بعد يومين اثنين ، ليصبح محل عنايتها وتمريضها ، دون أن يعكر صفوهما أى تهديد من الخارج .

والشيخ الجريح ساخط متبرم . الكسر فى ساقه يشل حركته تقريبا ويجعله عاجزا عن الدفاع عن نفسه إذا - لا قدر الله - أذيع السر وهوجموا . إن فكرة الكمين ترد على خاطره ، فهو مرتاب بطبعه ، ولكنها تفارقه بعد وهلة . ذلك أنه يثق تمام الثقة « بداود » !

وأخيرا ، بعد تقليب الموضوع على وجوهه التى يراها ، ترجح فى قلبه النبيل مشاعر العطاء و التضحية والإيثار . فيرضى أن يغادر العزبة ، بل يتعجل الرحيل ، لئلا يجلب محضره أى مكروه لعروسه الرقيقة الكريمة .

١٨ - لو تكلم البدر

هجع الريف مطمئنا بين أحضان الليل . وأطبق السبات جفون أولئك الذين قضوا نهارهم فى الحقول كادحين . البدر وحده فى السماء الساجية هو الذى سيشهد الأحداث .

عند منتصف الليل بالضبط ، سمعت « زنوبة » ثلاث طرقات متتابعة على نافذة السلاملك الخارجية التى يتدلى منها « البشكير الأبيض » فانفتح فى بطء باب العزبة الضخم . لمع فى ضوء القمر الخافت ما يكسو الخشب السميك من رءوس المسامير النحاسية الغليظة . وقال صوت فى الظلام :

- منصور مش مكسور !

فأجاب من الداخل صوت نسائى مبتهل :

- إن شا الله ! . . مع السلامة !

وخرج حصان عليه فارس جليل متدثر . حفّت به فى الحال أشباح الفرسان الثلاثة المنتظرين . وسار الموكب الصغير فى صمت نحو قرية « المحرص » . وفجأة ، من منخفض جاف كان فى الماضى غديرا ونضب ، بزغت فرقة

من « عسكر المديرية » كانت متربصة . وتكاثر أفرادها على « الشيخ باقور » . قيدوه وكمموه ، قبل أن يتمكن من إطلاق مسدسه الذى كان يمسك به فى طى حزامه الفضفاض . كل ذلك جرى فى مثل لمح البصر . وقد تعمد « سلطان أفندى » أن يتولى العساكر الرسميون دون سواهم هذه المهمة ، لكى ينفى الشبهات عن « زنوبة » و « داود » — وعن نفسه أولا — حين يهب البدو للأخذ بثأر زعيمهم .

وفيما يلى تلك الأرض الواطئة ، كان شاطئ النيل غير بعيد . وكانت دهبية راسية بجانب الجسر المرتفع ، متأهبة لاحتواء الأسير . فنقله الرجال إليها فى حيطة ورفق . وأبحرت متلصصة تحت جنح الظلام .

وظل الظلام مطبقا على الأسير القعيد ، حتى بعد طلوع نهار ونهار . .

وعندما ظهرت فى أفق بولاق تلك الدهبية البيضاء ، اصطف على رصيف الميناء كبار ضباط الحرس الخديوى يتطلعون إليها وهى تدنو . وتساءل الحمالون المنكمشون فى ركنهم عن سر هذه « التشريفة » ، ومن عساه أن يكون الصعيدى العظيم الذى جاء لاستقباله « البكوات » . . غير أن السفينة رست فى سكون ، وكأنها خالية من الركاب .

نزل منها « عرفان » « وغزولى » و « شهبندر » يحملون ذلك الأسير الأعزل ، المكمم ، المكسور الساق والموثق اليدين . واقتاده الضباط بكامل هيئتهم وسلاحهم إلى القلعة ، حيث زجوا به فى سرداب قصى ، معتم كالقبر ، يخفره عدد هائل من الجنود .

١٩ - غروب على النيل

لحسن حظ « داود » تمت عملية « الشوالين » بسهولة لم تُعْوِزه إلى تقديم التوصيات التى زوده بها « سلطان أفندى » . والحق أنه لم يكن يرغب فى لقاء الناس عامة ، ولقاء رجال السلطة خاصة . كان مهموما ، موزع الخاطر ، تستغرقه الهواجس . قدماه تسيران على أرض القاهرة ، وذهنه سارح فى العزبة . إنه يتمثل صورة « زنوبة » الحانية على « باقور » الكسير ، فيعتريه الخوف عليهما . غير أنه لا يستطيع أن يحدث عن شجونه أحدا . وبمجرد أن سلم « البضاعة » لأصحابها فى أطراف شبرا ، عاد إلى بولاق ، ليلحق بسفينة كانت على وشك الإبحار إلى الصعيد .

يثقل عليه إبطاء السفينة ، مع أنها تقصد المنيا دون أن تتوقف إلا مرة واحدة على بنى سويف . ويجتذب إليه وجومه عطف بعض الركاب الطيبين . يبادلهم عبارات الود دون أن يخرج عن تحفظه . وإذ يخلو إلى نفسه فى المساء ، تنتابه مثل حيرة الفأر فى المصيدة . إنه كلما أراد أن يحول فكره عن العزبة وعمن

تركهم فيها ، يعود القلق فينهشه . ولا ينقضى ندمه على تهوره بالسفر فى هذه الظروف .

إنه لا يعلم على كل حال – وسفينته تدنو من بلدة « العياط » أن تلك الذهبية الأميرية المقابلة ، التى يراها فى أشعة الغروب تنساب نحو الشمال ، ولا يميز الواقفين على ظهرها [وكان خليقا بأن يميزهم لو تنبه إلى العالم الخارجى] ، إنما تحمل فى قاعها ، مسجى على أريكة تكتنفها الوسائد ، ضيفه الكريم ، صهره العزيز ، حليفه وزعيمه . . بلا حول ولا قوة . .

يصل « داود » إلى العزبة ملهوفا مكدودا . يلمح فى مدخلها حركة غريبة . نساء فى ملابس الحداد السوداء يتقاطرن على المندرة ، بينما غص السلاملك بالفلاحين والبدو . ومع ذلك فالخشوع يخيم على الربوع وعلى الوجوه . . ماعدا « سلطان أفندى » الذى يتصدر الرجال ، ويرسل الزفرات والحسرات ، وهو يعرك مسبحته الوردية منفعلا . أما خاله الوقور فقد جلس فى ركن صامتا ، مطرقا إلى الأرض ، مستندا بيمناه على عصا صقيلة مستقيمة .

يالفجيعة « سلطان أفندى » ! إنها فجيعة مضاعفة ، لأنه هو الذى أراد أن يدرأ الخطر وتطوع لإنقاذ حياة « الشيخ باقور » – وما أغلاها لبيت « داود » وللأمة كلها ! لكنه معذوز مقهور : غدرت به « الحكومة » إنه ينفطر ، ويئن ، ويثور ، ويقسم أغلظ الأيمان . . ثم يهيب بالقوم ألا يفقدوا الأمل ، ويعاهدهم – إذا حفظوا السر ولم يذكروا اسمه قط أمام المسئولين أو جواسيسهم – أن يحاول محاولة أخيرة لدى القصر ، بمعاونة كبار موظفى

« الدايرة السنية » ، لعله يتمكن من استصدار عفو الخديوى عن « الشيخ باقور » نظرا لحالته الصحية .

وينتحى « سلطان أفندى » ناحية مع « داود » لبضع لحظات ثم يحيى الجميع معلنا سفره إلى القاهرة فورا للقيام بهذه الوساطة .

٢٠ – بين عابدين وحلوان

وشَخَص « سلطان أفندى » إلى قصر عابدين وحيداً . كان طليقاً ، خفيف الخطى ، تراوده فرحةِ الظفر . أنه بمجرد ذكر اسمه لرجال التشريفات سيستقبله الخديوى ويحتفى به . لقد حالفه الحظ ضد تحدى الخديوى فلم يتجاوز الشهر المحدد لاعتقال « باقور » لا بد أن براءة الباشوية قد أعدت ، والآلاف العشرين فى انتظاره ، وماعليه الا أن يتقدم ليتسلمها ، ومن يدرى ، لعل المبلغ قد ضوعف ... لا سيما وقد تخلص الخديوى نهائيًّا من « الشيخ باقور الحنفى » .

نعم ، فمنذ أسبوع أمر إسماعيل باشا بإخراج الأسير الخطير من القلعة ليلاً ، وإلقائه سراً فى النيل . ثم أشيع أنه انتحر بالوثوب إلى النهر قرب « البدرشين » ، فى غفلة من الحراس عشية وصول الدهبية ، التى تحمله إلى القاهرة .

وسلطان أفندى » مسرور فى قرارة نفسه بهذه التطورات الأخيرة التى لم يشترك فيها ، لأنها ستعفيه – إزاء البدو والفلاحين فى مديرية المنيا – من مسئولية الفشل فى الإفراج عن « باقور » . كل الهموم إذن وراءه . وليس أمامه إلا أن يجنى ثمار فوزه ، وأن يقتحم أعز آفاق القاهرة ...

على أن رجال القصر لا يعنون بهذا « الأفندى » . عبثا يطلب مقابلة الخديوى ، شفوياً وتحريرياً . إنهم يهملونه ذلك أن إسماعيل قد أنبئ بحضوره ، فأظهر من الضيق والغضب ما حمل رجال الحاشية على مجافاته .

فى هذه الأثناء يتعرف سلطان « باليوز باشى » « محمود عبد السميع » . وهو ضابط مصرى من ضباط الجيش ، مهضوم الحقوق ، يضطهده رؤساؤه الشراكسة ، وقد أتى ليدفع مظلمة إلى الخديوى . وأخيراً ، بعد المطل من ساعة إلى ساعة ، ينصح رئيس التشريفات « لسلطان أفندى » أن يعود فى اليوم التالى لينال سؤاله .

وقبل أن يخيم المساء يزور « سلطان أفندى » ضابط الجيش الذى أنس الية صباحاً وشاطره سخطه . منزل متواضع فى حى الحسينية الشعبى ، وسبعة من البنين والبنات لا يكفى مرتب اليوزباشى لقوتهم ، إذا استطاع أن يقبضه ... فالمرتبات لم تصرف منذ ثلاثة شهور .

ويؤدى حديث المظالم وشكوى الزمان والحكومة إلى المداولة فى البحث عن مخرج . هنا يبوح الضابط « محمود عبد السميع » « لسلطان أفندى » الذى يبدو أهلاً لثقته ، بأن جمعية وطنية سرية قد تشكلت – بعيداً عن عيون الخديوى – فى حلوان ، حيث يلتقى أعضاؤها فى منزل واحد منهم . وتضم الجمعية الآن كثيراً من ضباط الجيش المصريين ، والتجار ، وطلاب الأزهر . فلماذا لا ينضم « سلطان أفندى » إليهم ؟ إنه لا يتردد قط ، بل يتعهد بنقل الحركة إلى الصعيد ... دون أن يشير فى عباراته المتدفقة الحماسة إلى الشيخ « باقور الحنفى » أو الشيخ « فتح الله » أو « داود » ولو بكلمة واحدة .

هكذا تبدأ علاقة « سلطان » بإحدى خلايا الوطنية التى سبقت الثورة العرابية فى منطقة القاهرة ومهدت لها .

وفى الصباح التالى يتمكن « سلطان أفندى » من مقابلة رئيس التشريفات بقصر عابدين ، فيبلغه آسفاً أن وقت الخديوى لايتسع لاستقباله ، ولكن « ولى النعم » قد أنابه فى تسليمه – بغير احتفال رسمى – براءة الباشوية أما مبلغ العشرين ألف جنيه ، فها هى ذى قيمته فى صورة سندات على المالية من الدين الموحد . يحتج « سلطان » ، لأنه على هذا النحو لا يقبض شيئاً ... فيعده رئيس التشريفات بالتوصية على إقطاعه بدل السندات أرضا زراعية . ويرضى « سلطان » شاكرًا ، متمنيًا أن تكون « الأبعدية » فى مديرية المنيا .

٢١ – سلطان باشا

ذبلت نضارة « زنوبة » أضناها الحزن الذى تجتره ليل نهار. وتخر أعصابها الندم على اشتراكها فى تسليم« باقور » إلى عدوه

إن فى اتشاح جمالها البرىء بالتجاعيد وبالسواد جوراً صارخاً ، يستنفر ضمائر أهلها ، برغم تجلدها الرائع .

ومن هزال « زنوبة » وشحوب وجهها ، وعباراتها المتقطعة المتباعدة ، نعلم أن أياما كثيرة قد مرت على « العزبة الغربية » دون أن تصل أى أخبار عن « الشيخ باقور » أو عن« سلطان أفندى » . لقد سافر بعض كبار البدو أيضاً إلى القاهرة لاستنقاذ زعيمهم . ولكن طول انتظار الأنباء ينذر بالتشؤم . والشائعات ترددت أخيرا – تسربت من ديوان المديرية فى المنيا – بأن الشيخ « باقور » قد غرق فى النيل ، منتحراً ، قبيل رسو السفينة على ساحل بولاق .

غير أن شيئاً من تلك الشائعات لم يتأكد . هذا ما يكرره « دواد » لأخته ، وقد أتى إلى غرفتها ليواسيها ، وهو مهيض مثلها من الألم والكمد . ولعله يجتهد فى إقناعها بسلامة زوجها ، لأنه يحاول الإيحاء بذلك لنفسه .

وتدخل الخادم العجوز عليها ، فتعلن « لداود » أن الشيخ « فتح الله » قد جاء يطلبه .. يغادر « داود » غرفة أخته ، ويجتاز الفناء الخالى إلا من أفراخ حمام قليلة حطت على الأرض أمام برجها الأبيض . ويصعد إلى السلاملك ، فيجد الشيخ « فتح الله » جالساً يقرأ - وهو عابس متجهم - رسالة فى يده .

- جواب من مصر؟.

- سلمهولى باليد الواد شهبندر آدى يادوب نص ساعة .

- من « سلطان أفندى » ؟.

- من « سلطان باشا » .

باشا ؟

أنا الحقيقة مش فاهم كلامه .

-بيقول إيه ؟

- عجايب ! ...اسمع .

« خالى العزيز الشيخ « فتح الله » .

بعد إهداء وافر السلام لشخصك المحبوب والجميع من يسأل ، أرجو معذرتى عن التأخر فى الكتابة إليكم حتى اليوم فمنذ وصولى إلى المحروسة والأحوال فى تطور خطير ، وتغير مستمر . إن المعركة التى نخوضها قد أتسع ميدانها . وقد وفقنى الله لكسب مواقع جديدة ، نستطيع منها . بإذنه تعالى أن نشن هجومنا قريبا على المستبد المفترى .

البقاء لله وحده لقد خسرنا الشيخ « باقور الحنفى » ، ويالها من خسارة

فادحة ! إسماعيل باشا غدر به ، وأغرقه فى النيل سراً ، قبل وصولى لمصر بثلاثة أيام .

ولما تأكدت بوسائلى الخاصة من وقوع ذلك المصاب ، ذهبت للقصر ، وقابلت الخديوى . شرحت له أولا أننى جئت ألتمس عفوه الكريم عن الزعيم العاجز . ثم هددته بالعواقب الوخيمة التى ستعود عليه من قتل« الشيخ الحنفى » .وانتهى كلامى معه بنوع من التفاهم المفيد . بل إنه أحسن اتفاق يمكننا الحصول عليه فى الوقت الحاضر ، وصورته كمايلى .

نلتزم نحن بالكسوت ، ونقول إن« الشيخ باقور » رمى نفسه فى النيل قبل وصوله لبولاق لأنه رجل حر يرفض الأسر ، مع أن الخديوى العطوف كان عازماً على مصالحته والعفو عنه . ونظير هذا الموقف البسيط من جانبنا ، عرض على الخديوى أن يمنحنى رتبة الباشوية ، وأبعدية من أراضى الدائرة السنية غرب بحر يوسف .

والحق أنى ترددت كثيراً فى قبول هذا العرض . ولكنى فكرت فى واقع الظروف التى نعيشها ، فرأيت أن حركتنا – لا سيما بعد أن فقدنا الشيخ باقور– لن تقوى على أن تقلب الخديوى الآن ، بينما الباشوية والأطيان مكسب لنا من الناحيتين المعنوية والمادية . مكسب عظيم يزيد من نفوذنا فى البلاد بين العامة والخاصة . وبهذا النفوذ نستطيع أن نهاجم الخديوى نفسه فى الوقت المناسب . لا بد لنا اليوم من زعامة جديدة تخلف زعامة المرحوم « الشيخ باقور » . مصالح الناس فى حاجة لمن يدافع عنها . وبتداخلى مع الخديوى سوف أتمكن من إسماع أصواتهم وإبلاغ مطالبهم . صحيح أن الباشوية والأطيان باسمى ، ولكنى أضعها

بأكملها فى خدمتكم وخدمة الأهالى .

وعهداً منى على ذلك ، أرسل لك طيه صورتى الرسمية ببدلة التشريفة لكى تعلقها فى صدر الدوار . وهكذا تنشرح نفوس الناس الذين يقصدونك ، ويعرفون أن سلطان باشا معهم ويقف دائما بجانبهم .

وسأغيب فى المحروسة أسبوعين آخرين لمفاوضة الخديوى فى بعض التفاصيل . وعندما أحضر طرفكم سأشرح لكم مذكرات الحزب الوطنى السرى الذى انضممت إلى مركزه هنا مع جملة من الأعيان والتجار والعلماء والضباط المصريين لتعديل نظام الحكم فى البلاد .

وإلى حين رجوعى للمنيا بالسلامة ، أستحلفك ياخالى برحمة والدتى ورحمة « الشيخ باقور الحنفى » أن تنفذ كل ماجاء فى خطابى هذا ، وألا تخبر أحداً على الإطلاق بأن الخديوى قتل « الشيخ باقور » — سوى الأخ داود الذى أبعث إليه بسلامى وأستحلفه كذلك بكل عزيز لديه أن يكتم هذا السر لمصلحتنا جميعا .

وأرجو أن يعتبر هذه الرسالة موجهة إليه شخصياً أيضاً ، فاقرأها عليه ياخالى ثم احرقها أمامه ودمتم

للمخلص

محمد سلطان باشا

قرأ « الشيخ فتح الله » تلك السطور وملء نبراته الغيظ . ولكنه لم ينبس بأى تعليق . ساد صمت ثقيل ، ممض ، خانق . وارتسم نفس التساؤل الرهيب على

الوجهين الصارمين . وبعد لحظة من ذهول ، يطرق « داود » إلى الأرض ويقول يائسا .

– تبقَى الضربة والكتمة !

وعلى الأرض ينحنى «الشيخ فتح الله» فيحرق ذلك الخطاب ، ومظروفه. وقبل أن تخبو النار ، يلق فيها بصورة « سلطان باشا » المتباهى بملابس التشريفة . وينظر إليها مرة أخيرة واللهب يلتّهمها – نظرة ازدراء إنه يريد أن يبرأ من وصمة عار ، أن يبيد وثيقة هوان .

ويسطع وهج النار على ملامح الرجلين فيجلو مايعتصرهما من الألم الدفين . غير أن قسمات وجهيهما تزداد صفاء وهما يحدقان فى الشعلة التى تلتّهم الصورة . لعلهما يتوسمان جذوة تتوقد فى صدور جيل مقبل ، يتحول فى سعيرها زور المفترين ومجدهم إلى رماد .

ماذا لحق بهولاء الشباب المنصتين لحديث أستاذهم ؟ ماالذى ظهروا عليه؟ سلسلة محمومة من الصور القديمة تتداعى فى ترتيب يُخِلّ بترتيب المعانى المستقرة فى أذهانهم . والتيار يَشُقّ إداركهم كشرارة خَطَفَتْ واستطال ثقبها فى الظلام . يكاد يبهرهم ذلك الوميض البعيد المتقطع وهم يحاولون أن يميزوه حجاب الرؤية قد تمزق على كل حال فى باطنهم . ولم تخمد تلك البؤرة المضيئة . إن إحساسهم المرهف بالماضى الحبيس قد اندلعت تهاويله تخفّق فى أبصارهم خفْقَ النار التى أحرق بها « فتح الله » خطاب « سلطان باشا » وصورته عند قدمى « داود » المغلوب على أمره .

٢٢ – عودة الذاكرة

سكت الأستاذ « فخرى » ولكن ظاهرة غريبة سرت بين التلاميذ المتحلقين حوله يتتبعون بأعمق مشاعرهمماينبعث فى عباراته من المشاهد . ظاهرة أشبه بما يقع أحيانا لمن يؤمنون بحلول الأرواح والتناسخ . راح بعضهم يعزوها إلى قوة إيحاء المشاطرة الوجدانية . وراح بعضهم يفسرها بقوانين من علم الضوء عن إشعاعات الشمس الغاربة . وراح آخرون يدللون على أنها أطياف نجمت من انعكاس وهج الصحراء التى تكتنفهم وقد اختزنت حرارة النهار بأكمله فتخلخل الهواء فوقها .

وأيًّا كان التعليل ، فمعظمهم التلاميذ يقولون إنهم شهدوا وسط الحلقة وجهين خاشعين ناطقين بالعذاب يجتذبان أبصارهم ، وإنهم تعرفوا فيهما وجهى« داود » و « الشيخ فتح الله » ثم احتل مكان الصورتين فجأة وجها الأستاذ « فخرى » والزميل « عادل » الجالس بجواره ، وعليهما إمارات الجد والتحفز .

ويتأهبون للعودة إلى السيارة خطواتهم بطيئة . فما زالوا يواصلون الإنصات

والرؤيا . ويلاحظ أستاذهم هذه التؤدة التى لم يعهدها فيهم من قبل . يذ
مركز ثقل جديد يشدّهم . وإنهم يتحركون إزاء الشفق المتأجج ، دون أن
مافى نفس كل منهم من حديث . ولكنهم لا يتفرقون . كأن خيطاً واحداً
بينهم وهم ينتشرون تارة على الرمال ، ويلتئمون تارة فى مسيرة جماعية
أمام الهرم .

ومن خلال نوافذ السيارة التى تحتويهم ، ومن خلال خواطرهم المسا
يرمقون البنيان المرصوص ، حجراً فوق حجر . ثم ينطلق السائق بـ
المدينة ، فيخلو الأفق وراءهم إلا من تلك الكتلة الشاهقة الراسخة

محتويات الكتاب

الصفحة

رقم الإيداع .	١٩٨٣/٢١٥٩
الترقيم الدولى ٠-٠٣٥٨-٠٢-٩٧٧	ISBN

١/٨١/١٩٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)